العيش بذاكرتين

رواية للكاتب

عواد النواصرة

المؤلف: عـواد النواصـرة
تصميم الغلاف: القسم الفني بدار نهر الكتب (لوجوتيلز)
المراجعة اللغوية: شيماء رميح
رقـــــم الإيـــــــداع: ٢٥٢٠٤
الترقيم الدولي: ٠ـ٧ـ٨٥٤١٦ـ٩٧٧ـ٩٧٨
الإخراج الفني: القسم الفني بدار نهر الكتب (لوجوتيلز)

المدير العـــــــام: هالة رجب
رئيس مجلس الإدارة: محمد محمد هيكل

جميع الحقوق محفوظة لدار نهر الكتب للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة من إدارة الدار، يعرض صاحبها للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلفين فقط لا غير.

جمهورية مصر العربية

موبايل: 00201069648008 - 00201022443472

البريد الإلكتروني: nhrelkotob@gmail.com

السيرة الذاتية للكاتب

الكاتب / عواد عايد عبدالحفيظ النواصرة

مواليد : ديسمبر ١٩٧٢ الكرك- لواء الأغوار الجنوبية- غور المزرعة–المملكة الأردنية الهاشمية.

حاصل على درجة البكالوريوس في الجغرافيا- شهادة دبلوم الدراسات العليا في التربية- درجة الماجستير في الجغرافيا الطبيعية- درجة الدكتوراه في القيادات الإنسانية- درجة دكتوراه الفلسفة في الجغرافيا- مستشار المنح الأكاديمي في رئاسة جامعة الحياة - رتبة سفير النزاهة الإعلامية لتنمية المجتمعات. حاصل على العديد من الدورات في مجالات-الكمبيوتر- الإدارة- التنمية البشرية لي العديد من الأعمال والأنشطة التطوعية والمجتمعية. يعمل حاليًا بوزارة التربية والتعليم الأردنية.

من كتاباته: له العديد من المؤلفات في الجغرافيا والتاريخ والقصة القصيرة بالإضافة الى العديد من الابحاث العلمية المحكمة. والمقالات المختلفة المنشورة في العديد من الصحف العربية.

كلامـهم

"عندما تتكاثر المصائب يمحو بعضها بعضا وتحل بك سعادة جنونية غريبة المذاق، وتستطيع أن تضحك من قلب لم يعد يعرف الخوف" **نجيب محفوظ**

"إنني أكتب كمَا أحيا، كما أتنفس، فأنا ممن لا يتنصلون من أنفسِهم ومن خطاياهم ومن أصدقائهم وأخطاء أصدقائهم، وحتى من تقدير خصومهم".**جهاد أبو حشيش**

"التاريخ لحظات منحرفة عن سير الزمن، والباقي تفاصيل" **حكمت النوايسة**

الخوف من المجهول هو :ظلك الثاني، سيرافقك طوال حياتك، ولن تتخلص منه مهما فعلت. **عواد النواصرة**

الإهـــــداء

إلى من اكتفوا بشم رائحة براعم المطر في أيلول،

إلى أولئك الذين أصبحوا خبراء في عالم الفجيعة.

فهـرس الروايـة:

خارج النص (أنا) ٨
القرية خارج النص..... ١١
ذاكرة القريـة ١٤
خميس وسعيد وأشياء أخرى..... ٢٣
البدايـة الثقيلـة ٣٤
فلاح وعريف وشكري ٤٧
أصدقـاء ولكـن!! ٥٤
البدايـة الأولـي..... ٦٢
حضـور مـع سبـق الإصـرار ٧٠
حـــوارالـنفـس..... ٧٧
منتصف الذاكـرة..... ٨٦
الرجـوع الأخـير..... ٩٤
الجـانـب الآخـــر ٩٧
إنكسار القلـوب ١٠٩
المـواجـهـة ١١٥
بعـد أيـــام..... ١٢٥
عتبـة الذكريـات ١٢٧
رحلـة العـــودة..... ١٣٥
الهـــروب إلى العـاصفـة ١٤٠
حديـث الذكـريـات ١٤٧

بقايا الأيام ١٥١
ذكريات السموع ١٥٤
التراجع ١٦٢
حُلم ١٦٧
لقاء الثلاثة ١٧٠
تمدد الذاكرة ١٧٩
البداية من جديد ١٨٢
ويدور الزمان ١٨٦
رحلة الجينات ١٨٩
الذاكرة الأخيرة ١٩٣

خارج النص (أنا)

توفيت أمي اليوم، أو ربما بالأمس لا أدري! فقد تسلّمت البرقية التالية من الوطن: توفيت الوالدة، الجنازة غداً، المخلص لكم...

هذا لا يعني أي شيء، فربما ما حدث كان بالأمس. (ألبير كامو).

وجدتهم أخيرًا، شممت رائحتهم، جلست بعيدًا، وحيدًا، أتابع الحكاية من بعيد.

تحدثت معهم على انفراد، وجدتهم يصرون على شم أصابع التردد، ليس لديهم بديلا، ولا شيء جديد، فقط يمهدون لإعلان ثورة الحكاية، لكنهم رحلوا وبقيت ذكراهم، تداهمنا حين نشعر بهم بداخلنا، من هنا بدأت الحكاية، وأنا ما زلت خارج النص.

أعتقد أني تأخرت كثيراً، وما زلت أشعر بوطأة الذنب، رغم أنه لا ذنب لي.

سمنت الثواني في مخيلتي، وأنا أغوص في أعماق الدفاتر الحبلى حول قرية السكة، تجولت كثيرًا في حقول الوقت.

اعتبرت المستحيل والحلم وجهان لعملة واحدة، فأصابني داء التردد.

لِمَ التردد؟

سألت نفسي: أين يذهب الحلم عندما يبتلعه الوقت؟

هل كنت مصابًا بخيبة الحنين؟

هل أريد مغادرة حلمي؛ لأبقى تحت رحمة الأمنيات؟

لا أريد أن نعيش بذاكرتين.

لقد حملت إحداهما ذنبًا، والأخرى حملت عقابًا.

عندما نسمع حكاية قرية السكة، نشعر بأن هنالك شيئا ناقصًا، فالحدث هو الحقيقة.

لكن فهم الحكاية سيأتي بحسب المزاج والميول، قد نرتكب الذنب ونحن نعلم ذلك، وأحياناً نرتكبه ونحن نجهله.

وأحيانًا نعاقب في كلتا الحالتين، ستجدون لي عذراً عندما تعرفون حكاية خميس، وكيف عوقب رغم توبته من ذنب كان يجهله في الأصل! وكيف أصر سعيد على شم أصابع المعصية بإدمان ولم يعاقب؟

وفلاح السكران، عشق وشرب، ثم توقف رغمًا عنه، فحمل اسما جديداً رافقه طوال حياته .

عريف، أثقله الجنون؛ فعاش في كومة غضب، منيع الحكاية، برد تشرين، وأحلام أيلول، لم أغرق بالتفاصيل، فطفوت على سطح الحكاية.

عندما تحمل جثة الابتسامة على شفتيك سنوات طويلة، وأردت أن تعمل لها حفل إشهار أمام من ثقلت عليهم كآبتك، حتمًا ستقول لك تعابير وجوه الحاضرين من حولك: تبًا لك،أو أحسنت صنعًا.

قد نجد تشابه بعض الأسماء التي وردت في الحكاية مع الواقع، وأخرى لم نسمع عنها شيئًا، لكنها في النهاية حكاية، وإرث ثقيل، راود قرية السكة عن نفسها فعاشت بذاكرتين. مع أننا جميعًا نعيش بذاكرتين،

الـكـاتــب

القرية خارج النص

قرية السكة، هكذا كُتِبَ اسمها على مدخل القرية، ولا يُعرف من أطلق عليها ذاك الاسم، لم يصب سكانها بأي مرض من النوع الفخم، كداء النقرس مثلًا، ولم تتعد أمراضهم حدود الشيح والقيسوم، لا وجود لسكة حديد متهالكة، ورثت من زمن العثمانيين، أو شيء من هذا القبيل.

ربما كانت ممراً لرائحة السنين، وهي تفوح من سبخاتها، وربما كانت مثل عريف المجنون، وهو يجوب القرية مثقل بجنونه، لا يُعرف من أين جاء؟ أو اسمه الحقيقي أو حتى مدلول كلماته.

قرية السكة في بداية عقد الثمانينيات من القرن الماضي، حيث كان الشقاء عنواناً لمعظم أيام السنة. أنتج حرماناً توسده الأطفال، وأحلاما أتقنها الكبار، وهم يعلمون أنها لن تتحقق بكامل تفاصيلها، فالوقت غالبًا ما يبتلع الجزء الأكبر من أحلامهم، حلموا بأشياء كثيرة، حلموا أن تثمر أشجار الطلح برتقالًا، وحلموا أن يتحدثوا أمام مختار القرية، ولو هراء وحلموا بكل التفاصيل الممكنة، وحلموا أن تكبر المدارس معهم؛ لتنير لهم شيئًا من

الحياة، فقد عانوا من قلة الزحف إلى العلم، وقلة من يمهدون الطريق لزحف آمن.

بقيت قرية السكة للجميع، وعاشت للجميع، فليس لها ذنب بأن كان مولودها ذكرًا أو أنثى، فطالما اعتراها الشوق والإدمان لسماع أجراس ذاكرتها تقرع من جديد، إنها قرية السكة، هربت بأفكارها في ثنايا الحسرات، وهي تقول: أنا للجميع، كلكم أولادي، البار منكم والعاق، فحاولت مرارًا أن تجعل حروفها تولد كل ليلة، لكنها عجزت وبقيت قصيدتها بدون عنوان.

إنها القصيدة التي تعب الجميع في بنائها، حجرًا حجراً، وبيتًا بيتًا؛ لتضمهم بين ثنايا كل الحروف، لكنها تعبت في إقناعهم بمفهوم شكل حجر أساس تفكيرهم" أنا وأخي ضد ابن عمي، وأنا وأخي وابن عمي ضد الغريب" ومع ذلك نجحت قليلًا في إبقاء رائحة الطريدة تفوح من سفوحها، فلا مفر من مشهد هزيمتها الأولى.

فأدركت حينها: أن للصيد قصص، وبطولات من نوع آخر، لا سبيل فيها لتمجيد الضحية، وأن المستحيل والحلم، ربما كانا وجهان لعملة واحدة

في يوم من الأيام، وقد يكون هنالك خِل وفي على هذه الأرض، وقد ينبت الحلم أوراقًا خضراء، إذا انتهينا من شم أصابع التردد.

ذاكرة القرية

إنه الصباح في قرية السكة، حيث لا جديد يذكر.

تعبت خلاله الديكة من الصياح المتواصل، فكان الإنصياع لشروق الشمس أمرًا لا مفر منه.

عجوز متهالك سبقته أغنامه؛ بحثاً عن عشب نما في لحظة غفلة، ولم يؤكل في المرات السابقة، بينما يجلس المثقلون بمرارة الألم على قارعة الطريق، أحدهم تغير طعم لعابه من الشيح والقيسوم، وآخرأجلسته الحيرة، يتحسس الوسم على رقبته من آثار الكي، وقد علقت رائحة البخور بأنفه بحجة أنه معيون؛ فكان الذهاب إلى طبيب المدينة هو الحل الأخير. يتجمعون على الطريق المؤدي إلى المدينة، طريق يخلو من مظاهر الترف، يشطر القرية إلى أجزاء غير متساوية.

تختلف أعدادهم من يوم لآخر، فبعضهم يريد الذهاب لقضاء بعض الحاجيات، أو مراجعة بعض الدوائر الحكومية، ومن فاته باص القرية، قد ينتظر ساعات طويلة، أو يعود إلى بيته، ويكرر المحاولة في اليوم التالي، وعدد قليل منهم حصلوا على وظائف حكومية، تقام لهم الولائم عندما

يعودون في إجازة مثقلون بهمومهم، سمة من يخرجون إلى مزارعهم في الصباح، يقذفون البلغم في كل الاتجاهات، من آثار السجائر التي جلبت لهم النشوة في الليلة السابقة، يذهبون باكرًا، لاتقاء حرارة الشمس عند الظهيرة، وبعضهم يواصل العمل، فلا خيار أمامهم، يلبسون ثيابًا بالية، وكأنهم على خشبة مسرح يمثلون أدوار المتسولين ورغم شروق الشمس ما زالت ديكة حديثة العهد بالحياة تحاول تقليد ما علق بأسماعها من أصوات الكبار، فتسكت رغمًا عنها بحجة الإزعاج.

تسلل ضوء النهار إلى ربوع القرية، فظهرت بوضوح غرف من الطين، وأخرى من الأسمنت غير المسلح، تتخللها أكواخ قش متناثرة هنا وهناك، وبقايا سهول قديمة، وتلال وأودية، وثمة جبال في جهة الشرق متوسطة الارتفاع، وفي الغرب بقايا بحيرة قديمة تسمى بحيرة "زغر"؛ فظهرت أجزاء القرية وكأنها على خلاف مع بعضها البعض، لا ورد أو حدائق بين جنباتها، فتلك الأشياء ليس لها قيمة في قرية السكة.

لقد أدمن سكانها على رؤية أشجار الطلح، والسدر والعشير، ولا غرابة إذا نمت وردة أن تداس أو تقطع دونما سبب.

فالحياة في معظمها إرث ثقيل، جاء من بقايا السنين الغابرة.

ومع خروج العمال من منازلهم تنطلق العبارات الصباحية: صباح الخير، صباح النور، صبّحه، يربّحه. اشرب شاي، شربت، صح بدنه، وبدنه، وعبارات أخرى حفظوها عن ظهر قلب.

وتنطلق أصوات الماشية والدواب، وتتردد خلفها أصوات الرعاة بما أتقنوا من مصطلحات لردع الأغنام، أواستعجال الحمارإن تأخرعن السير في المقدمة، ويساندهم في ذلك نباح الكلاب، وقرع أجراس مرياع الغنم، بينما يتجمع عدد من الأطفال الراغبين في اللعب، يركبون على خيول من أغصان الشجر، ويقودون سيارات من أغطية الطناجر، فكأن لهم عالم آخر، ويتحدثون مع بعضهم البعض بلغة خاصة، يمثلون دور الشرطي، ودور اللص، ودور المعلم، وأحيانًا يقلدون عريف المجنون بحركاتهم العفوية.

***

- صباح الخير يا خميس، تأخرت اليوم عن فتح المحل!

-- صباح النور والسرور، كل يوم أفتح المحل يا نفوز، وعدد قليل يأتون في الصباح، أغلب زبائني لا يأتون إلا قبيل الظهيرة. أريد التأخر قليلا؛

لأستمتع بشرب القهوة من يديكِ، واستمتع برؤية المزارعين وهم ينطلقون للعمل.

انظري إلى الأغنام، وهي تطلق أصواتها، ما أجملها! لولا تلك الرائحة.

- تسلم يا خميس، قهوتك جاهزة تفضل اشربها، ولا تركز في رائحة الأغنام.

-- انظري يا نفوز إلى عريف المجنون، لقد مر من أمام بيتنا لغاية الآن خمس مرات.

- أراك تنظر إليه وتضحك، وكأنك تراه للمرة الأولى!

-- ضحكت ؛ لأني تذكرت بعض ما يقوله أهل القرية.

- وماذا يقولون؟

-- يقولون: هنالك رجل غني، يريد شراء عريفًا؛ ليذبحه على باب المغارة، المغارة الشرقية عند النبع.

- يا ستار يذبحه؟ معقول؟!

-- هنالك كنز يا نفوز، ويقولون :كنز ضخم جدًا.

- عريف ليس له أهل في هذه القرية، ممن سيشتريه؟

هذه المشكلة لا يوجد له ولي أمر.

-- لكني أستغرب يا نفوز، سعيد لم يتدخل بهذا الأمر لغاية الآن؟!

- يا صباح يا عليم. أراك في كل موضوع تذكر سعيد وتدخله في الحديث. أشرب قهوتك قبل أن تبرد وسعيد ليته ما يسعد.

-- صدقتِ، فشرب القهوة أفضل من سعيد وأشكال سعيد، سوف أنادي عريفًا؛ ليشرب القهوة معي.

بالمناسبة... عريف لا يحب شرب القهوة، إنه يحب الشاي.

أعدِ له إبريقًا من الشاي، مسكين... فليس له أحد في هذه القرية.

تعال يا عريف، أجلس هنا بجانبي؛ لتشرب الشاي.

أراك مبتسمًا هذا الصباح، أتوقع أن الشاي سيزيد من قوة ابتسامتك.

أسعدك الله يا عريف، لقد جعلتني أيضًا أبتسم هذا الصباح.

-- هل بقي أحد من القرية لم يخرج للعمل يا نفوز؟

- لا أعرف يا خميس، لكن لماذا تسأل؟

-- لقد تعبت من رد السلام، منذ أن جلست هنا من الصباح الباكر، سلم عليّ كل من مر من أمام بيتي.

- اكسب أجرا يا خميس، فرد السلام عليه أجر، وأنت تعرف ذلك.

-- لن أقدر عليكِ يا نفوز. أسعدك الله. وأسعد عريف معك، وكل من سلم علىَّ هذا الصباح.

***

ظهر مختار القرية في الصباح كعادته. رشيق الحركة لا يكل ولا يمل، وقد لبس أفخر ثيابه، يريد التوجه للمدينة. وكان يعتقد منذ أن تولى مهمة مختار القرية بأنه الأب الروحي للجميع؛ فيحاول دائما أن يسمع كل أخبار القرية، يسجل المواليد في ذاكرته، ويحفظ تاريخ ولادتهم، وعندما يجتمع لديه العدد الكافي، يذهب إلى دائرة الأحوال المدنية، ويعلن أنهم ولدوا في أي يوم يتذكره، حتى أن بعض المواليد، لا يحصلون على اسم ، إلا بعد أن يعود المختار، ويخبرهم أن هذا المولود أصبح اسمه فلانا في شهادة الميلاد. لكنه اكتسب ميزة غريبة، مكنته من حل بعض المشاكل في القرية.

فعند حدوث مشكلة يؤتى به يتهادى بين الرجال، اعتقاداً منه بأن تقمص دور المريض، يساهم في حل المشاكل.

وغالبا ما ينجح في ذلك. لم يرث جسما بدينًا يعبر عن الوجاهة الاجتماعية، بل كان جسمه نحيلًا على غير المعتاد، شارباه قصيران جداً يصعب ملاحظتهما إلا عن قرب.

- أسعد الله صباحك يا مختار.

-- حياك الله يا سالم، صباح الخير.

- تبدو من بعيد ضعيف الجسم يا مختار.

-- وما ذنبي يا سالم في ذلك؟

- لم أقصد شيئا، أحببت أن أمزح معك هذا الصباح. أراك مسرعًا يا مختار هل عندك ضيوف ؟

-- ضيوف في الصباح؟! لا... لكني أريد الذهاب إلى المدينة، لقد أصبح عندي عددًا من المواليد لأهل القرية، ولم أسجلهم في سجلات الأحوال المدنية لغاية الآن، وعندي عمل كثير، أعمالي كثيرة لا تنتهي يا سالم.

- أعانك الله يا مختار، أريد أن أضع لك قليلا من العطر إنه أصلي ومن النوع الجيد، ويناسبك لأنك مختار القرية، ويضيف عليك الهيبة في المدينة؛ فأنت مختار القرية. ووو.

-- يكفي يا سالم، فأنا في عجلة من أمري، ولا تعطلني عن عملي.

- أتقصد أني أعطلك يا مختار؟ سامحك الله تعالى، ما قصدت إلاأن أضع لك القليل من العطر. إنه أصلي أنظر إلى الماركة المطبوعة على العلبة، أنه أصلي.

-- أشكرك يا سالم، أشكرك جدًا، باص القرية هذا وقته أراك في المساء إن شاء الله.

- أنت حر يا مختار، مع السلامة.

مالي كلما تحدثت مع أي شخص، لا يريد الاستمرار في سماع كلامي، هل أنا أتحدث بكلام لا يليق؟ أم أن هنالك شيء لا أعرفه؟!

صحيح يا مختار، اسمع، اسمع، انتظر هذا العطر عود ند أصلي، سعيد يحب هذا العطر، إنَّه عطر الوجهاء.

لا حول ولا قوة إلا بالله، المختار لا يريد سماعي، لقد ازدادت سرعته، عندما ناديت عليه.

أنا سالم مساعد المختار في القرية، أرى أن الجميع لا يرغبون بسماع حديثي، لابد أن يكون لي موقفًا حازمًا، حتى لا تضيع هيبتي بين الناس، حتى المختار لا يريد سماعي ماذا جرى للناس؟!

خميس وسعيد وأشياء أخرى

انقضي اليوم بكامل تفاصيله، وقاربت الشمس على المغيب، وسيعود كل من خرج من بيته في الصباح، ويتكرر إيقاع الصباح عند الغروب، ولكن بشكل معكوس، يستبدل النشاط بالإنهاك والتعب، والعبارات الصباحية بالعبارات المسائية، مساء الخير، مساء النور. يعطيك العافية، يعافيك. كيف كان يومك، الحمد لله.

صوت الاغنام لم يكن قويًا كما كان في الصباح، لقد أنهكها المسير والتنقل، بحثًا عن العشب، عاد الجميع إلى بيوتهم، المريض ومن خرج للتسوق، الأطفال أتعبهم اللعب والتقليد، وبدأت النساء بالاستعداد لإشعال مصابيح الكاز.

إنَّه غروب الشمس في قرية السكة، وطالما شَكلَ الغروب فصل ربيع لذاكرة خميس، عندما يختلط الحنين مع أنين الذاكرة؛ فجلس متعثراً بصمته، لقد فاحت ذاكرته القديمة من جديد. وليس بوسعها ألا تفوح في تلك اللحظات، أعتاد الجلوس في كل مساء على صهوة كرسيه المعتاد، في وسط كوخ من القش (عريشة) وضع على مدخل بيته الذي يتوسط القرية، يناظر القرية من

بعيد، يتحسس ببصره بعض علامات البلوغ فوق سهولها ووديانها، قبل أن يبتلعها الظلام، تلك القرية التي لم تعد خارج إطار الذاكرة كما كانت من قبل، لقد شعر خميس بأنها تمردت على نفسها أخيراً، وبكت من عينها بعد أن كان بكاؤها بالإنابة، لقد أحس بتعبها عبر مشوارها الطويل، وهي تستجدي؛ لتدفع ثمن خطيئة الغياب، تعب وهو يحاول في كل جلسة مسائية أن يبحث عن حلمه المفقود. لكن الحظ لم يسعفه في العثور عليه، لقد فقده في إحدى زوايا القرية في كومة من ركام الأمنيات.

لقد سمع خميس ذلك الصوت الذي حمل بين أحشائه نبوءة الكلمات، ونزق جاء من أعماق المكان وأسطورة تتجلى كلما داهمته الذكريات. فيأتيه الوحي وهو لا يدري، من أين تهطل كلماته؟ فهي إدمان تربع على سرج كل ضامر، عندما حجت التعابير إلى شفتيه، فليس بمقدوره إلا أن يشم رائحة القضية، فما عاد فمه قادرًا على التوبة.

لقد تأخر فنجان القهوة عن المثول أمام خميس هذا المساء، فاعتبر ذلك التأخير: جريمة لكنها في نفس الوقت، جريمة لا تستحق العقاب. فأشار برأسه أن زوجته تأخرت هذا المساء في إعداد فنجان القهوة، فوضع يده أسفل ذقنه، وقال في نفسه: لعلي أستطيع أن أشم رائحة القرية مرة أخرى،

قبل أن يتسرب إليها الظلام. فجال بصرة في أرجاء المكان، لا جديد يذكر فما زالت رائحة صمت القرية تزاحم أنفاسه، ما زالت القرية عذراء إذا تعلق الأمر بالحوار وأبجدية الكلام. لكنها ليست مذنبة؛ لأن حروفها لم تنضج بعد، فليس لها ذنب بموت أميرة، وبقاء فلاح مصابًا بذّكراها كل هذا الوقت، أوانتشار سعيد وكأنه فيروس يزكم الأنوف بالمجان، فليس للقرية ذنب بنوم سكانها لفترات طويلة، ولم ينتج عن نومهم إلا أصوات الشخير.

أفاق من حديث النفس، متذكرًا أن فنجان القهوة لم يمثل أمامه بعد.

يا نفوز يا أم عامر، وقبل أن ينادي الثالثة، إذ بقهوته الخالية من السكر قد مثلت أمامه. هدأت نفسه قليلاً عندما تأمل فنجان إعادة النشاط الذهني. لم تكن أم عامر قد تأخرت عن قصد، لكنها مداعبة من نوع خاص حفظتها بالتواتر، وإرث حافظت عليه سنوات طويلة تمهيداً لإعلان ثورة الحكاية المسائية؛ فهي السبب في تلك الجريمة، والتي لم يحدد لها عقاب في سجلات ودساتير الذاكرة.

حاول خميس أن يلتمس عذرًا لذلك التأخير، ولو من باب المكيدة، ففكر بحال القطط عندما تأكل صغارها أحيانا،ولا تقدم للمحاكمة. فشكلت نفوز طريقًا آمنًا له وشاهد عيان من الصعب أن يحاكم على فنجان قهوة.

لم يكن خميس زعيمًا في القرية، أو باحثًا عن منصب يجاهر به، بل كان إنسانا بسيطًا، همه الوحيد: أن ينير عتمة الحكاية، ويميط اللثام عن تركة ما زالت تتربع على أفئدة المؤلفة قلوبهم، وتظهر في عيون الحيارى على شكل وسواس خفي، يسألهم من أين أنتم؟

لقد حمل خميس هموماً ورثها أيام نضاله، وكبرت معه في قرية السكة. وكان سببها هو ذاته لأنه آمن بفكرة أنهم لن يصدقوه، وأن سعيدا موجود في إحساس كل واحد منهم. وبقيت صورة الحكاية في مخيلته أبيض وأسود لم تحصل على ألوانها الحقيقة رغم دخول عصرالإخراج والإنتاج الفني، وبقيت كغيمة لا ذنب لها بحجم الهطول، فبقيت مثل كلمات عريف المجنون.

- خميس أليس هذا اسمي يا نفوز؟

-- نعم يا خميس هذا اسمك، أتحس بشيء؟ وهل أنت مريض ونسيت اسمك مع فنجان القهوة، رغم ترددك في شربها؟!

- لست مريضًا يا نفوز، لكني أريد أن أعرف هل مختار القرية من فعلها، أم والدي؟

-- ماذا تقصد بكلامك؟

- من اختار لي هذا الاسم؟

-- شارت نفوز برأسها أنها لا تملك الإجابة.

- عدد قليل من أهل القرية يحملون هذا الاسم، حتى أنت يا نفوز أعتقد بأن اسمك يتيم في القرية؛ فالأعمى يستطيع أن يستدل علينا، مثلنا مثل عريف لا يوجد مجنون في القرية غيره، ولا حتى كلمات تشبه كلماته. رغم أننا كلنا مجانين يا نفوز!

وكأي امرأة تحب زوجها، ولا تتمنى له أي شيء يعكر مزاجه، نظرت إليه وحاولت أن تجلب له الطمأنينة بابتسامتها، فقد شعرت أن ساقه تؤلمه، إنه بساق يتيمة، وطبيعة جلسته بحاجة إلى كرسيه المعتاد، والذي أعد ؛ ليناسب وضعه الصحي.

ساقه الشمال من أسفل الركبة صناعية، لقد فقدها أثناء عراكه مع الحياة.

وما هي إلا دقائق، حتى عاد وأقتنع بأنه مازال هو ذاته خميس، لقد تعدى عمري الستين يا نفوز.

-- ما زلت في نظري شباب يا خميس.

- أي شباب يا نفوز؟

الصلع غزا رأسي، والشيب خالف لون وجهي، وبرجل واحدة، واسمي خميس، لم أفقد رجلي في الحرب كما تمنيت، لكني فقدتها من المرض.

-- سوف تبقى في نظري كما أنت، فقد عرفتك بشعر أسود وقوام جميل، واسمك خميس، ولله الحمد على ذلك. ولن أنسى أجمل أيام حياتي معك يا خميس، لقد أسعدتني طوال تلك المدة، ولم تقسو عليّ، وكنت نعم الزوج.

توقفت نفوزعن الكلام؛ لأنها شعرت بحجم المعاناة التي قضاها خميس خلال سنيين عمره لكنها لم تقطع سبل الاتصال فاستمرت بنشر الابتسامة.

ليت أن هنالك عشرات الأسماء في القرية، وكلها خميس!

- أتحب اسمك لهذه الدرجة ؟

-- أنت تعلمين أكثر مني، كلما أتى شخص يسأل عن خميس، كل أهل القرية يأتون به إليَّ، حتى لو لم أكن أنا المقصود.

لكني أحب اسمي لأنه ارتبط بكِ يا نفوز، أتذكرين عندما ذهبت أمي إليكم، وقالت لأبيك (الحذية) عندما رأيتك أول مرة؟ لقد كان قلب أمي دائما يشعر بما أشعر، لقد شعر قلب أمي معي، حتى وأنا في السجن.

- نعم يا خميس، كنت أسمع عندما قال أبي: (أبشري تراها أجتكم) كنت صغيرة تلك الأيام، وجلست طوال الليل أنتظر الصباح، لا من أجل أن أراك؛ بل لأرى وجهي في المرآة الوحيدة في بيتنا، والتي كانت في صندوق أمي.

وقلت في نفسي:"هل سأعجب خميس عندما يعود من محنته ويراني؟" لم أعرف ما هو السجن، ولا حتى لماذا دخلت السجن أصلًا؟

صمت خميس مرة أخرى، فوجد نفسه يعيش بذاكرتين مختلفتين، امتطت إحداهما صهوة أحلامه؛ فذهبت بعيدًا، وبقيت الأخرى؛ لتعايش واقع قرية السكة.

إنه خميس أبوعامر، عَرفةُ أهل القرية كرجل مسالم لا يحب الكلام كثيراً، رغم امتلاء جعبته بالكثير من الأحداث التي اعتراها كتمان شديد من لدنه.

يخاف من بقاء لقب فدائي، ملتصقاً به طوال حياته، فالحكاية القديمة ما زالت جاثمة على تفكير أهل القرية، يعرفه الجميع من خلال طبيعة عمله في خياطة وتنجيد فرش المنازل، من صوف الأغنام وغيرها. لم يسعفه الحظ في إكمال دراسته، فأخذ منها إجادة القراءة والكتابة.

يعيش على سفح تله صغيرة في وسط القرية، في بيت مكون من غرفتين، وكوخ من القش وأغصان الشجر. وفي وسط الكوخ، كان كرسيه المعتاد والذي أعد؛ ليناسب وضعه الصحي أثناء جلوسه.

تتأمل نفوز صمت خميس دائما بصمت أكبر؛ فهي على مشارف الستين من العمر، بدأت تضاريس الزمن تنتشر على وجهها غير مكترثة لذلك. فهي لا تمتلك تغيير التفاصيل، وما زالت تفيض بحيوية ونشاط مستمر. تقوم بأعمال المنزل، ومساعدة زوجها في أعماله حينما يتعلق الأمر بفرش المنازل وتنجيد الأثاث. لكنها ما زالت تغرق بأحضان الذكريات

عندما يغشاها طارق من أيامها الخوالي، شاردة الذهن في أغلب أوقاتها، تفكر في أبسط الأشياء، وتعتقد دائما: بأن هنالك مصيبة قادمة. حولت السنين لونها إلى حنطي مكتمل الأركان، تخاف على ولدها الوحيد عامر، ولكن ليس كخوف خميس عليه، فقد جاء خوفها من باب عاطفة الأمومة.

- أتذكرين يا نفوز؟

-- وما أذكر يا خميس؟

المنديل الموشح بالخرز الأزرق، الذي أعطيتك إياه.

-- عندما كنت في السجن يا خميس؟

- نعم هذا ما أقصده، فالسجن ما زال في نفسي مستمراً لغاية الآن.

-- ما زال المنديل موجوداً في حقيبتك، لكن الخرز تحول من أزرق إلى عديم اللون. لقد كان هديتك الأولى لي يا خميس.

- إنه الزمن يا نفوز، يغير كل الاشياء، لقد غيرني وغيرك أنتِ.

لم يكن ابنه عامر طرفاً في الحكاية، لقد أخفاه خميس طويلًا؛ حتى يصاب بداء الكتمان، وقطع عنه الوحي كي لا يجهر بالدعوة، لكن القرية لم تسلم من هذا الداء، فكان الكتمان والخوف وباءً لم يسلم منه إلا القليل.

***

نظرت نفوز إلى زوجها خميس مستغربة ما يقوم به، يدني فنجان القهوة من فمه تارة، ويبعده تارة أخرى،دونما يشرب منه شيئًا.

-- مالك يا خميس، أتختبر رائحة قهوتي أم ماذا؟

- لا ليس كذلك، فما زلت أعشق قهوتك كما هي، لكني أفكر بحالي وحال القرية.

-- لقد أجهدت نفسك كثيراً، سنوات طويلة وأنت تفكر. اشرب قهوتك فهذا وقتها.

-- أتغير مزاجك لأني تأخرت قليلًا في إحضار القهوة؟

- لا يا نفوز، لم يتغير مزاجي، لكن أفكاري اختلطت بأحلامي، أفكر بقرية السكة وأهل قرية السكة، اختلط معي الزمان والمكان، أفكاري تسافر مع الزمن، وأحلامي تختلط بالمكان.

-- آه يا خميس! بعض كلماتك من الصعب أن أفهمها، فهي تشبه كلام المذيع في الراديو، أفضل شيء أن ترتاح. أو عاقبني على فنجان القهوة؛ لأني تأخرت وسأقوم بإشعال مصباح الكاز، قبل أن يداهمنا الظلام.

- لا يوجد عندي عقاب لكِ في ذاكرتي يا نفوز، حضورك وأنت تحملين إبتسامتك المسائية، زيل مجرد التفكير بسن قانون لعقابك في تشريعات حياتي. فأنتِ من بقي معي، وحمل همي وأنت تعلمين ذلك، ونور وجهك قد يغني عن ضوء فتيل المصباح.

-- أشكرك يا خميس، وأعرف ذلك جيداً، لكني أحببت أن أتكلم معك فقط.

- أتعلمين يا نفوز؟ لم أجد أي شيء يشعرني بوطأة الذنب إلا شيئا واحدا.

-- ما هو يا خميس؟

- بقايا ذنب مقيم، واسمه سعيد.

-- أراك تعطي سعيدا أكبر من حجمه، وتتكلم عنه كثيرًا، أينما ذهبت.

- ظهرت سموم سعيد أمامي في الملاعب والحارات، وحتى أناشيد الباعة المتجولين، لم تسلم منه يا نفوز.

البـدايــة الثقيلـة

يا لها من صدفة! أنظر يا خميس مَن هناك؟ إنَّه سعيد وسالم والمختار، إلى أين تراهم ذاهبون؟ أعتقد أنهم قادمون إلينا، ماذا يريدون في هذا المساء؟!

سعيد والمختار وسالم، حدق بهم خميس بكل ما أوتي من قوة نظر، وثارت في نفسه تساؤلات، ماذا يريدون؟ سعيد يأتي إلى بيتي، هل تراه يحمل مصيبة جديدة؟ لم يمتلك وقتًا كافيًا للتفكير، فانتبه على صوت سالم وهو يقول:

- السلام عليكم يا خميس؟

رد خميس متثاقلا:

-- عليكم السلام، حياكم الله، تفضلوا.

نظر سالم إلى خميس، وقال: هل رأيت علي ابن المختار مر من هنا؟

صمت خميس قليلاً وأراد من صمته أن يكون دقيقا في الإجابة.

ما رأيت إلا عريف المجنون منذ الصباح، وهو يجوب القرية، وقبل قليل رأيته مر من هنا.

واصل سالم حديثه منفردا مع خميس.

-- لم نسألك عن عريف المجنون، لقد رأيناه في طريقنا، ويحمل بيده كيسًا، وأعتقد أنه ملبس أو حلقوم، ويقول:

ادخل في الموضوع يا سالم.

- حاضر يا مختار، أنا أردت الرد على خميس فقط، نسألك عن علي ابن المختار.

- وهل علي لا قدر الله مفقود، أو شي من هذا القبيل؟

بدت علامات الانفعال، وخيبة الأمل على وجوه الجميع من إجابة خميس، والسبب أن بيته مشرفًا على القرية ويستطيع بسهولة أن يرى معظم المارين من مختلف الطرقات.

-- ابني ليس مفقودا، لكنه تأخر وقلقنا عليه.

- تمهل يا مختار. أنظر هناك؟

-- مالك يا سالم وأين أنظر؟

- سبحان الله، أليس هذا ابنك علي؟ إنَّه يسير مع ممدوح بن سعيد.

-- الحمد لله، نعم هذا ابني يا سالم.

- الحمد لله على سلامته، إنهم شباب أخذهم الوقت.

-- سلمك الله يا سالم، لقد قلقت عليه كثيرًا، ووالدته كانت قلقة من تأخره، أين كنت يا علي لقد تأخرت كثيرًا؟ من صلاة العصر ونحن نفتقدك.

- تمهل يا مختار لا تقلق، لقد كان مع ممدوح ابن سعيد ألا تراهم؟ إنهم شباب.

لا باس يا سالم لا مشكلة عندي، الحمد لله أننا وجدناه.

أخذ سعيد ينظر حوله، ولم يعجبه الحوار الذي دار بين سالم والمختار، فلم يسمع ما يدل على أنهم قلقون على ابنه ممدوح مثل قلقهم على علي ابن المختار.

-- ماذا تقصد يا مختارأنكم وجدتموه؟ وابني ممدوح ليس له قيمة عندكم؟!

- لا يا سعيد لا أقصد شيئًا، قلقت عليهم فقط.

-- لا تقلق إذا كان ابنك مع ابني.

- لم أقصد شيئًا يا سعيد، لي الشرف أن يكون ابني مع ابنك.

ظل خميس ينظر إليهم، ويسمع الحديث الدائر بينهم وبعد توقف الحديث قال لهم:

"تفضلوا يا جماعة؛ لنشرب الشاي"

نظر إليه سعيد نظرة، غشيته من رأسه حتى أسفل قدميه. وهو يحرك عصاه ويهزها في حركة استفزازية وقال: "لم نأتيك لنشرب الشاي".

- ما بك يا سعيد تنظر إليَّ بهذا الشكل؟! وتحرك عصاك في وجهي!

-- لا شيء، ومن أنت حتى أنظر أنا إليك؟

- سامحك الله يا سعيد، أنت في بيتي.

-- ولو لم أكن في بيتك، ماذا ستفعل؟

أخذ المختار يسعل بصوت عالٍ؛ لأنه أحس بأن هنالك شيء قد يحدث بين خميس وسعيد، فأراد أن يمتص الموقف.

فقال: "هيا يا سعيد لقد تأخرنا، وقد يأتي ضيوف إلى بيتي"وكما تعلمون ، فأنا مختار القرية وعندي مسؤوليات كثيرة.

- نراك مرة ثانية يا خميس، السلام عليكم.

غادر الثلاثة وبلعهم الظلام في ثوان معدودة، لكنهم بقوا في مخيلة خميس، ولم يخرجوا منها إلا عندما قالت نفوز بصوت عال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

- و نعم بالله يا نفوز، ألم تشاهدي كيف نظر إليَّ سعيد؟ وكيف كلمني؟ لقد جاءوا وذهبوا، وكأنهم فاجعة أتت على عجل.

-- لا تقلق يا رجل، أنت تعرف سعيد، إنَّه بهذا الشكل ومن الصعب أن يتغير، نسأل الله له الهداية.

- إلى متى يا نفوز، و أهل القرية يدورون في فلك سعيد؟ يعتقدون أن له علاقات اجتماعية قوية، ويستطيع من خلالها أن يفعل ما يريده.، يهابونه أكثر من المختار.

آه يا نفوز! لقد أحبط سعيد، ومختار القرية كل محاولة للنهوض بالفهم، وسكان(قرية السكة) لا يريدون إلا الاستمرار في تذكر شيء واحد، شيء واحد.

-- وما هو يا خميس؟

- أن ابن العم هو: المخول بإنزال ابنة عمه عن ظهر الفرس.

-- لا تشغل بالك بهم، ولا تخلط الأمور بعضها ببعض، هم يتحدثون في موضوع ابن المختار، وأنت تتكلم عن تقاليد القرية.

سار الثلاثة متوجهن إلى بيت المختار، حيث يجتمع أهل القرية في مضافة المختار في بعض الليالي. يتحاورون في أمورهم ومشاكلهم، هكذا كان العرف في القرية، وكعادته توسط سعيد بين سالم والمختار، محاولًا أن يتقدم عليهم خطوة في المسير؛ لاعتقاده بأنه أهم شخص بالقرية، من حيث الوجاهة الاجتماعية.

وقد اعتاد أن يحمل في يده عصا من الخيزران، جلبت له مزيدًا من الهيبة، فهي لا تفارقه على الإطلاق.

لقد امتلك سعيد بعض المقومات الطبيعية، من جسم ممتلئ، وشاربان طويلان وقامة طويلة، عززت في نفسه شعورا بأنه الأفضل والأقوى، يغضب بسرعة كبيرة عندما يشاهد خميس؛ لأنه يذكره بما مضي من حياته. خصوصاً تلك الفترة التي كان يعمل فيها طاهيًا في أحدى الكتائب العسكرية،

والتي كان خميس جنديًا فيها. وعمل بعدها مع الفدائيين في تجنيد الشباب في صفوهم قبل أحداث أيلول.

وكان غنيًا ولم يعرف أحدًا مصدر ثروته، أو كيف حصل عليها! وكان يحب أن ينادي سعيد باسمه المجرد؛ لاعتقاده بأن اسمه بدون لقب أهيب له، ومخالفًا للتقاليد، من باب خالف تعرف يغدق المال على كل من يقف معه، فكان هذا الكرم بمثابة شراء للذمم.

لقد كانت هنالك حربًا باردة بين خميس وسعيد، فكل واحد منهم يكره الآخر، لكن خوفهم المتبادل من بعضهم البعض أجل المواجهة فيما بينهم، فخميس يخاف أن يعيد الزمان نفسه أيام كان مع الفدائيين؛ لأن سعيد هو من جنده في صفوفهم، وسعيد يخاف من أن يدلي خميس بمعلومات عن تاريخه، يجهلها معظم أهل القرية، خصوصًا تلك التي تتعلق به، عندما كان زعيمًا لعصابة تسرق المنازل، والمحلات التجارية أثناء العمليات العسكرية.

ولكن كان هنالك سر لا يعلمه أحد، لماذا كان يسرق سعيد في تلك الأيام؟ ولماذا كان يجند بعض الشباب في صفوف الفدائيين؟

لكن أهل القرية ما زالوا يتذكرون ذنبًا، رغم أن القلم كان مرفوعًا عنهم بخصوص سعيد، وكيف تعامل مع أمه بقسوة كبيرة، عندما كانت مريضة وفي أواخر أيامها . لكنهم صمتوا أمامه، ولم تصدر منهم كلمة واحدة تعبر

عن رفضهم لجريمة مكتملة الأركان، لقد عجزوا حتى عن الكلام. عجزوا أمام غرور سعيد وتكبره غير المبرر، ولم يشفع في ذلك الموقف إلا كلمات قالتها أم سعيد وهي تتجرع طعم الألم والحسرة : سعيد ليته ما يسعد. فكان دعاء الأم على ولدها العاق، فتعبت الأيام بعد ذلك وهي تبحث له عن توبة.

***

سيذهبون الآن إلى بيت المختار.

- لماذا لا تذهب معهم يا خميس؟ قد تتغير الأمور وتصبح من جملة أصدقائهم، أو تروح عن نفسك قليلًا قد كنت تجلس عند المختار قبل مدة، لكنك انقطعت.

-- إذا ذهبت يا نفوز، سوف أصاب بخيبة الحنين.

- الله أكبر! خيبة الحنين وماهذه؟ لقد تعلمت مصطلحات غريبة يا خميس، من تجاربك في الحياة، لا أستطيع أن افهمها أحيانًا، كيف تقدر على هذا الكلام؟

-- لماذا تضحكين يا نفوز؟ فالدنيا مدرسة، وتعلمت من خلال الاختلاط بالناس ولله الحمد.

- وما هي خيبة الحنين يا خميس أفندي؟

-- أفندي؟ والله زمان عن هذه الكلمة.

ما علينا يا نفوز، خيبة الحنين وجدتها في إحدى الجلسات عند المختار.

- وكيف كان شكلها؟

-- ليس لها شكل يا نفوز؟ هي إحساس شعرت به، وأنا أستمع إلى كبار السن عند المختار، فبعضهم ليس لهم فائدة إلا السعال بصوت عال، وتوزيع عبارات الانتقاد بالجملة.

تصدقي يا نفوز، أنهم ما زالوا يقرعون الطبول؛ لتخليص القمر من حالة الكسوف؟

- لا تستغرب ذلك يا خميس، هذه عادة، كنا نفعلها ونحن صغار، فعندما يحدث (خسوف القمر) يقولون: بأن الحوت قد ابتلع القمر، ونجتمع ونقرع على صحن الغسيل، وبعد فترة من الزمن، يعود القمر للظهور مرة أخرى.

مالك تضحك يا خميس؟ لقد تغير مزاجك بسرعة.

-- لا شيء يا نفوز، أضحك على شيء مشابه، عندما كنا في بيت المختار ذات مرة، كان معظم الحضور يفكرون كيف تظهر صورة الإنسان؟ ويُسمع كلامه من جهاز التلفاز، والمصيبة أنهم في كل ليلة يأتون بنفس السؤال، وحتماً لن يعثروا على إجابة شافية، لأننا جميعنا لا نعرف أي شيء عن ذلك.

بعض المواقف تضحك يا نفوز، أسعدك الله يا زوجتي العزيزة، لقد غيرتِ مزاجي قليلًا، بعد ظهور كابوس سعيد أمامي هذا المساء، وخصوصًا أنكِ كنت من قارعي الطبول.

- اذهب يا خميس، واسهر معهم في بيت المختار، ربما جلوسك معهم ، يغير العلاقة بينك وبينهم.

-- لماذا تصرين على ذهابي إلى بيت المختار بهذا الشكل يا نفوز؟ قالها خميس وقد ظهرت عليه بعض علامات الانفعال.

- مالك يا خميس أغضبت من طلبي؟

-- لم أغضب، لكن ما هي الفائدة من ذهابي إلى بيت المختار؟ أتخيلهم الآن يتحدثون في كل الاتجاهات ما يطلبه المستمعون، ويسكتون فجأة إن اقترب أحدهم من طرح أي مصطلح تفوح منه رائحة السياسة.

تأخر المطر، لا يوجد ربيع هذا العام، فلاح السكران ما زال يتحدث عن حبه لأميرة، والقصص والحكايات عن عريف المجنون، من أين جاء؟

ومن هم عائلته؟ تخيلي يا نفوز، أن بعضهم يعتقد أن عريف من رجال المخابرات أو جاسوس.

- جاسوس، الله أكبر معقول يا خميس؟

فلاح السكران؟ فلاح السكران جاسوس أيضًا.

-- لا أقصد أنه لن يسلم منهم، وصدقي أنهم يحددون حفلات الأعراس التي سيحضرها فلاح؛ لأنه يحفظ الأغاني ويرددها، وبارع في قرع الطبلة، وهم يعلمون أنه انقطع عن الشرب منذ سنوات، لكن الجميع ما زالوا ينظرون إليه بأنه وسيلة للتسلية، لا أكثر ولا أقل، ولم يستطع أحد طوال تلك الفترة، أن يمحو لقب سكران عن فلاح. وبعضهم لا يصدق كلامه عن فتاة

أحبها، وما زال يتغنى باسمها، لقد ملوا من فلاح وهو يقول: ما زلت أحب أميرة، رغم موتها قبل سنوات طويلة، وأنا مللت منهم يا نفوز ، أريد أن أبقي وحيدًا في هذا العالم.

- لقد نسيت شيئًا مهمًا يا خميس.

-- لقد أصبحت أنسى كثيرًا، وما هو الشيء المهم الذي نسيته؟

- من سيذهب إلى المدينة؟

-- آه، السؤال المعهود الذي يوجه بشكل عام للحضور في مجلس المختار.

- نعم يا خميس، أحببت ألا يفوتك شيء، مما يقولون الآن.

-- لقد أضحكتني يا نفوز، مرة أخرى هذا المساء، مسكين من يقول: نعم أريد الذهاب إلى المدينة؛ سيتحمل همّ إحضار طلبات الحضور من الأسواق.

- لكن الأمر تغير قليلًا يا نفوز، ألست معي فيما أقول؟

-- وكيف؟

شكري الخليلي وفّر لهم بعض الضروريات، من السلع التجارية، ووفّر العناء على من أراد الذهاب للمدينة، ووفر لهم بعض الكلمات المدنية.

- كلمات مدنية يا خميس؟

زوجته فريدة(الفلاحة) تبدل حرف الكاف بدل القاف بلهجتها الخليلية المميزة.

- أتضحكين يا نفوز؟

لقد ضحكت من وصفك لزوجة شكري بالفلاحة.

أقولها من باب الفكاهة، لا أكثر ولا اقل.

فلاح وعريف وشكري

لم يكن في قرية السكة (خمارة)، أومحل لبيع أي نوع من المسكرات، لكنها تسللت إلى القرية بطريقة ما، وسكنت في عقل فلاح، وأصبح اسمه الرسمي بالقرية "فلاح السكران".

كان يشتري زجاجة الخمر، كلما ذهب إلى المدينة ويحتفظ بها، وعندما تشارف على النهاية يخلطها بالماء؛ لتشعره أنها ما زالت تحتفظ برائحة الخطيئة.

ثمة صبية ومراهقون اتخذوا من فلاح قدوة لانحرافهم، والشيطان لا يحب أن يدخل النار وحده؛ لذلك حاول فلاح أن يعرض مغامراته، عندما يكون ثملًا، لم يكن شيطانًا، لكن شيطانه كان حاضراً معه، يستعرض عضلاته أمام جمهورغابت عنه ثقافة الحماسة، فتراه يصفق أحيانا بخجل وبرودة أعصاب.

لم تحاول القرية أن توقف تمرد أحد أبنائها على التقاليد. فلم يهتم بشأنه أحد، بل تركوه يعث فساداً في محيط أسرته، والتي تجرعت آلام عصيانه وخروجه عن المألوف.

يشتم زوجته خديجة بما يجود به لسان شخص ثمل، لكنه طيب ونبع حنان عندما يمتلك وعيه وشعوره، لم تستطع خديجة ولا الأيام أن تحدث فيه أي تغيير.

فمنذ سنوات وهو يعاقر الخمر، حتى أصبحت جزءًا من حياته، وأصبح مظهره وجسمه النحيل مشبعًا بما يدل على تاريخه العقيم.

لقد كان يعمل تاجراً متجولًا يبيع الخضار، ويشتري الخردة أحيانًا، وفي وقت فراغه كان يعمل لصًا محترفًا في جماعة سعيد.

إن تحدث في مجلس لا يسمع حديثه، إلا من باب الخوف من تمادي لسانه وهو في حالة سكر شديد، يردد اسمها دائما، إنها أميرة تلك الفتاة التي عشقها أيام شبابه، وتنقله بين المدن كبائع متجول، تعرف عليها في مخيم البقعة أيام الأحداث لكن أسرتها (عائلة رمزي) فضلت العودة إلى فلسطين، وقتلوا جميعهم أثناء رحلة العودة، ولم يعرف قاتلهم لغاية الآن.

ومنذ تلك الفترة، وفلاح يردد اسمها غير مبالٍ بشعور زوجته، والتي أحترق ما بقي لها من شعور بالغيرة، وحولتها الأيام إلى إنسانة تريد العيش في ظل رجل، ولو كان من نوع فلاح السكران.

ومما أنعش ظهوره على مسرح القرية، قدرته الفائقة على إثراء أعراس أهل القرية، ولياليها الملاح بصوته العذب، ورقصته المميزة، فيغفر له الجميع أملًا منه في تحريك مشاعر رواد الأعراس، بعزفه المنفرد على الطبلة، فتهيج النساء بالزغاريد، وتعقد حلقات الدبكة بإحكام.

وفي الجانب الآخر كان عريف أو عريف المجنون في عُرف أهل القرية، يظهر في الكثير من المناسبات، وكأنه لوحة فنية، رسمت بيد طفل بليد، شعر مختلط سواده ببياضه، ولحية غير مهذبة، ويداه ترتفعان إلى الأعلى وكأنه يريد أن يقذف الحجارة.

إنَّه عريف، أوكما يقول أهل القرية "عريف المجنون"،لا يدري من أين حصل على اسمه؟ ولا يعرف شيئاً عن تاريخ القرية، ولا حتى عن أي شيء.

يحب دائماً شرب الشاي بل يعشقه بنهم، ويفضله على الطعام، والذي لن يحصل عليه بسهولة؛ لأن نساء القرية لا يرحبن به؛ اعتقاداً منهن أن لديه ميول جنسية، وبعض الرجال يعتقدون أنه "إما جاسوسًا أو من رجال

المخابرات" وهم يعلمون أنه مصاب بلوثة عقلية، لكنهم ما زالوا يكابرون بغبائهم.

يحب أن يحضر المناسبات بشغف ؛علّه يفوز بنصف دينار، أو كأس شاي يفوح منه طعم السكر، فهو مغرم بأكل كل شيء حلو.

يجوب القرية بشكل مستمر، وكأنه موظف بريد مثقل بتوزيع الرسائل، ينظر إلى السماء؛ ليشاهد الطيور، لكنه بلا أجنحة تذكر.

فقد تعلم منها تحريك يديه باستمرار، فأعتقد الناس أنه يريد قذف الحجارة، فهم لا يعلمون ما يدور بعالمه المجهول.

يلبس معطفه البالي صيفاً وشتاءًا، فهو لا يدرك ما تعنيه فصول السنة، ولا يستمتع بنزول حبات المطر، ليس له عائلة تذكر، ولا يعرف أهل القرية من أين جاء؟ وكل ما يعرفونه أنه عريف المجنون، وظهوره في مناسبات أهل القرية، جعله محوراً لحديثهم في بعض الجلسات، ونسجت حوله القصص والحكايات، فالبعض يقول"أنَّه من اليمن أو بلاد الشام"، و بعضهم يقول" أنه من القرية لكنه كان أحد أبناء الخطيئة"، ويعتقدون أيضًا أنه أنسان يحمل ذاكرتين، يظهر كمجنون بأحدهما، بينما يخفي سر كبيرًا في

ذاكرته الأخرى، وجميعهم لا يملك إجابة شافية، فملامحه غيرتها حرارة الأيام، ولسانه لم يتقن إلا كلمة "هيه هيه، سلام سلام".

وقد بلغ الأربعين عاماً من العمر، حسب اعتقاد أهل القرية الخبراء في تقدير السن.

***

لم تشعر قرية السكة أنها ستكون أم لمولود جديد في بداية عقد الثمانينيات من القرن الماضي، فوضعت مولودها بلحظة غفلة، عندما أسس شكري الخليلي أول محل تجاري تفوح منه رائحة الفخامة، فلم يعد سائق الحافلة يشعر بالقلق من كثرة الطلبات، التي سوف يحضرها من المدينة برفقة الركاب.

أصبح السكر والشاي والطحين، وبعض أنواع المعلبات، متوفراً ليلًا ونهاراً، ولم يعد الحصول على باكيت دخان ماركة الريم، والفيلادلفيا أمراً صعبًا.

الأمر الصعب هواستمرار تدخين الدخان العربي (الهيشي) فقد أصبح عادة قديمة.

ظهرت تلك المدنية البسيطة، على يد شكري الخليلي. تارة ينادونه بالخليلي، وتارة بالفلسطيني، أوالفلاح، وكان ميسور الحال، عقليته تجارية.

زوجته فريدة، وأولاده شكري وعمران وسارة وندا. جميعهم أصحاب عقلية تفوح منها رائحة الاقتصاد.

لم يهتم لهم أحد في بداية الأمر، كل ما هنالك أن إحدى العائلات جاءت للسكن في قرية السكة، حتى المختار لم يبدي لهم أي اهتمام.

كل هذا؛ لأن سعيد لم يقلق من وجودهم في بداية الأمر.

فرح معظم سكان أهل السكة، وتقربوا من شكري الخليلي صاحب الضحكة المميزة، والوجه البشوش، وصاحب اللّهجة المميزة، فدائمًا يتكلم باللّهجة الخليلية، والتي اعتبرها أهل السكة لهجة مدنية، ومن تكلم بها، فهو صاحب شأن، وله مكانة كبيرة.

وكذلك فريدة زوجة شكري، فلها لهجتها المميزة جداً، فحرف القاف يستبدل بالكاف مع التشديد عندما يلفظ، وثوبها الأسود المطرز بعدة ألوان، جلب لها مهابة أمام نساء قرية السكة، وتعرف في حال عدم وجودها باسم الفلاحة، لكن أولادها لم يحتفظوا بتراثهم الفلسطيني، فسرعان ما لبسوا نفس

ملابس أولاد السكة، وغاصوا في رمالها، حتى قاربت لهجتهم الأصلية على الإختفاء؛ بسب اختلاطهم بأولاد القرية، و تاريخهم لم يكن طويلًا في استعمال اللّهجة الفلسطينية الخليلية.

لم يجد خميس صعوبة تذكر في تأمين الخيوط اللازمة لعمله كنداف للفرش، فمن السهل عليه الحصول على (شلة فتلة) من محل شكري الخليلي، لقد نشأت علاقة جيدة بين عائلة خميس، وعائلة شكري.

بداية العلاقة كانت نفعية، حيث كان خميس زبوناً دائما لمحلات شكري، لكثرة ما يشتريه من صوف وقماش لطبيعة عمله.

***

أصدقـاء ولكـن!!

ما زال مفهوم أنا وأخوي على ابن عمي... و أنا و وأخوي وابن عمي على الغريب، مترسخًا في عقول أهل القرية، إلا ما ندر، كم من الوقت احتاج مبتدع هذا المثل؛ ليفكر به قبل أن يكون بمثابة طريق معبد يتجه إلى الهاوية؟ ومن عبد ذاك الطريق؟

تعود خميس أحيانًا التجول في القرية، بعد صلاة العصر، وصادف أن مر من أمام محل شكري الخليلي.

- إلى أين يا خميس؟ تفضل لشرب الشاي.

-- شاي يا شكري! أشكرك فهذا وقته.

- مالك يا خميس، لا تزورني نحن أقرباء، كل الناس تزورني، حتى عريف المجنون، يزورني مرات عديدة في اليوم الواحد.

-- أقرباء كيف؟

- كل الناس خير وبركة، ما عندك حنين لفلسطين؟ سمعت أنك كنت فدائي صحيح يا خميس؟ مع أي فصيل كنت؟ آسف يا خميس، لم أتركك ترتاح، أمطرت الدنيا عليك أسئلة.، ارتح وأشرب الشاي ونحكي.

-- كيف عرفت أني كنت فدائي يا شكري؟

-- لا تشغل بالك، مجرد حديث دار في بيت المختار، قبل فترة تقريبًا، حديث عابر يا خميس.

- حديث عابر أم مقصود؟

-- تمهل يا خميس حتى أعد لك الشاي.

في تلك الفترة، والتي انشغل فيها شكري بإعداد الشاي، فكر خميس بالموضوع، وقال في نفسه، ما تزال القرية تتحدث عني وعن تاريخي.

- مالك سرحت يا رجل؟ تفضل أشرب الشاي.

اسمع يا خميس، بكل صراحة كنت عند المختار، أسهر مع أهل القرية، وسألوني عن أصلي ومن أين أنا؟ فقلت لهم: من قرية السموع، قضاء الخليل.

وقالوا لي: هل كنت مع الفدائيين؟

قلت لهم: لا لم أكن مع الفدائيين في يوم من الأيام، وسمعتهم يقولون: أنك كنت مع الفدائيين، ولك تاريخ معهم. هذا ما جرى بالضبط يا خميس.

-- أسمع يا شكري، لقد كنت في السموع قضاء الخليل سنة ١٩٦٦م، هل ارتحت وعرفت ما تريد؟

- السموع يا خميس، هذه بلدنا قريتنا، ماذا كنت تفعل يا خميس؟

-- كنت مع الجيش، وكنا نقوم بمهمات الدفاع عن فلسطين، في تلك الأيام، وبعدها رجعنا على الكرامة وانتصرنا ١٩٦٨م.

كانت المعنويات عالية يا شكري، رغم التعب والسهر، تحملنا الكثير في سبيل الصمود، صمدنا وانتصرنا ولم يهزم فينا إلا الخوف، الذي غادر وهرب من قلوبنا.

- كيف يا خميس مع الجيش، ويقولون عنك فدائي؟

-- قصة طويلة يا شكري، وأراك متحمسًا لسماعها، اسمعها مني افضل من أن تسمعها من شخص آخر.

بعد معركة الكرامة والانتصار، أصبح التجنيد في وحدات الفدائيين يسير بشكل سريع، وكان سعيد من أهم الأشخاص المشجعين للانضمام للجماعات الفدائية.

- سعيد هذا يا خميس؟

-- نعم بذل كل ما بوسعه؛ ليجعلني أنضم إلى الفدائيين، وبالفعل أصبحت واحدًا منهم وصار إلى صار.

أنا كنت فدائي صحيح يا شكري، لكني تركت العمل معهم في وقت مبكر جدًا.

- آه يا خميس، نحن الآن ندفع الثمن.

-- كيف يا شكري؟

- الكلام الذي يقال، لكن لا تقلق، وأعتذر لأني تسرعت في الحديث معك، في هذا الموضوع.

-- انظر يا خميس، عريف المجنون لا يكل ولا يمل، ولا يشعر حتى بحرارة الجو العالية، يجوب القرية شمالها وجنوبها.

- مسكين هذا عريف، لكنه الأفضل بيننا، لا هم ولا عتب ولا حتى حساب.

-- بالمناسبة يا خميس، هل دعاك سعيد على خطوبة ابنه يوم الجمعة القادمة؟

- نعم دعاني؛ لأنها تقاليد القرية، ويجب أن يدعى الجميع.

-- لقد طلب مني يا خميس، كل الأغراض التي تلزم تلك المناسبة.

- أغراض ومستلزمات الخطوبة، يا شكري؟

-- نعم كل الأغراض، وسوف أقوم بتجهيزها؛ لأن سعيد رجل مهم، ومعروف، وسوف تكون حفلة خطوبة ابنه كبيرة، وعامرة بالحضور.

- انظر يا خميس، سالم اضنه يكلم نفسه.

- صوتك يا شكري، أخاف أن يسمعك.

- لا تخف؛ فهو مشغول بالحديث مع نفسه، إنَّه مساعد مختار، وأكيد فكره مشغول مثل المختار... سؤال يا خميس.

-- تفضل، اسأل.

- أيمكن لسالم أن يصبح مختارا؟ لأنه مساعد للمختار، فهو أولى الناس بها.

-- صعب يا شكري، المخترة وراثة، أو حسب مزاج سعيد.

- وراثة هذه فهمناها، أما حسب مزاج سعيد... فلم أفهمها!

-- سيأتي اليوم، وسوف تفهمها يا شكري.

- السلام عليكم، كيف حالك يا شكري؟

-- من هذا؟ خميس؟

- نعم يا سالم، أنا خميس، أنسيتني؟

-- لا يا خميس، نظري ليس كما يرام.

- اسمع يا شكري، هل عندك دواء للمغص؟ تقطعت مصاريني من الألم!

-- سلامتك يا سالم، اشرب شيح، أو جعدة.

- شربت الكثير، ولم تنفع... ويقول الناس:"أنك يا شكري خليلي"، والخليلي يعرف طب العرب.

-- مالك يا خميس، تركز النظر في وجهي؟

- لا شيء، أقول سلامتك يا سالم.

-- سلمك الله، زمان كنا نروح البلاد، كانت أيام جميلة، وعند المرض، كان طب العرب في الخليل(عطبة).

- أعملها لي يا شكري.

-- خميس مالك تضحك يا رجل؟

- أضحك على العطبة، أهي نفسها الكي على تحت السرة؟

-- نعم هي يا خميس، وبكل تأكيد شكري خليلي، وأكيد يعرف ذلك.

- لا يا سالم، صحيح أنا خليلي لكن ما سمعت عن العطبة.

-- أنا أعرف يا سالم، الآن أعملها لك.

- لا يا خميس، لا أريد لقد شفيت، أريد الذهاب إلى البيت، سلام عليكم.

-- ما لك يا رجل، اجلس اشرب الشاي.

-- شكرًا يا شكري، لا أريد.

غادر سالم، وساد الصمت لفترة وجيزة، حيث جلبت كلمة (لبلاد) مشاعر جياشة لدي شكري، فهذه الكلمة لم يسمعها من زمن، فذكرته بفلسطين، وطفولته فيها.

أما خميس... فلم يكن بأفضل حال في مجال الذكرى، لقد جلبت له الكلمة، سطور من باطن الذاكرة عن تلك الفترة التي قضاها في فلسطين، والأيام الشديدة التي عاشها، عندما كان يقاتل، وفقد بعض أصدقائه، في تلك الأيام.

- سمعت يا خميس؟

-- سمعت، ولكني لا أعرف ما تقصده بسمعت؟

- كلمة (لبلاد) آه يا خميس، ما أجملها من كلمة! ولو أن سالم ليس مريضًا، لسمعنا منه حديثا طويلًا، وطويلًا جدًا.

-- لا تقلق يا شكري، أنت في بلادك أيضًا.

- ونعم البلاد يا خميس، لكنها ذكريات.

البدايــة الأولــي

- أين كنت اليوم يا خميس؟

-- لم أذهب بعيدًا، مررت من أمام محلات شكري الخليلي، ودعاني لشرب الشاي، وبعدها تجولت قليلًا في القرية.

- وما هي الأخبار؟

--لا جديد يذكر، يوم الجمعة القادم ستكون حفلة خطوبة ممدوح ابن سعيد.

- أعرف يا خميس، وكل القرية تعرف ذلك، ونحن مدعوُّون أليس كذلك؟

-- نعم تمت دعوتي، ولكني متردد، وما زال الوقت مبكرًا لاتخاذ القرار، لا أريد أن أرى وجه سعيد، ولا حتى أن أشاركه أي مناسبة.

سعيد ليته ما يسعد، أسمع صوتًا عند الباب، اذهبي؛ لتعرفي من جاء في هذا المساء.

- إنَّه أبو مروان يا خميس.

-- آه... الإذاعة المتنقلة، قال في نفسه.

- وهل زوجته معه؟

-- نعم يا خميس.

- تفضلوا أهلا وسهلًا.

حاول خميس الوقوف؛ لاستقبال أبي مروان، لولا وضعه الصحي، وصعوبة الوقوف بدون الارتكاز على عصاه، فسلم عليه وهو جالس. وشد أبو مروان على يدي خميس بقدر ما حوى جسمه من قوة، فقد كان رجلًا ضعيف الجسم، شاحب العينين لكن صوته عاليا جداً وخشن، ويداه قويتان بما يكفي لترك أثر سلامه الحار، وعمره يقارب الستين عاما، وما زال يدخن بشراهة، له شاربان قصيران، وكأنهما رسما كلوحة فنية من شدة الحف، فظهرا أسفل أنفه الكبير بقعة صغيرة، قد عفا عليها الزمن.

كان أهل القرية يعرفون أبى مروان بأنه: كثير الكلام، وينقل الأسرار، وتشاطره في ذلك زوجته أم مروان، فهي دائما تفتعل المشاكل في القرية، وخصوصا بين الأزواج.

بمجرد جلوسه، أصيب خميس بالإحباط في بداية الأمر، لكنه قال في نفسه: "علّه يسلينا قليلًا بما يحمل من أخبار.

جرت العادة في قرية السكة، ألا ينادي الشخص إلا زوجته، أوابنته باسمها فهو تقليد متبع؛ لذلك قال أبو مروان: ما أخباركم يا أم عامر؟ وقد قصد نفوز في حديثه.

ضحك خميس من سؤاله، وقال له: لماذا بدأت بسؤال زوجتي أم عامر؟

- لأني سمعت أم عامر يا خميس، قبل دخولي تقول: سعيد ليه ما يسعد.

أدرك خميس أن الامر لم يكن كذلك، لأنه هو من قال: "سعيد ليته ما يسعد "، وليس زوجته نفوز.

وبسرعة قفزت أم مروان لواجهة الحديث، وقالت بصوتها الرفيع :

لقد جاء شكري الخليلي إلى بيت سعيد، وتبادلا الضحكات مع بعضهما بعض، لكني لم أعرف بالضبط لماذا ضحكوا؟

تعجب خميس مما قالت، وأصبح لديه فضول أن يعرف السبب الذي جعل شكري الخليلي يذهب إلى سعيد؟ ولماذا ضحكا بهذا الشكل الذي وصفته أم مروان؟

تصدر أبو مروان الحديث من جديد، وقفز إلى حديث أخر كغير عادته، فهم خميس أن حديثه دائما يتغير عندما يتعلق الأمر بسعيد.

انطلق أبو مروان بحديث من أيام زمان، حين حمل حماراً وعليه كيساً مملوءاً بالملح، وعليه طفل صغير وقطع بهما سيل قرية السكة، وأنقذهما من الغرق. وأن شكري الخليلي جلب بضاعة من الخليل، وهي أرخص في ثمنها من التي تباع في المدينة، وأخذ يسهب في شرح حكاية عريف ويقول: أتعلمون أن عريف المجنون قد وجدوا معه سكيناً، وكيساً مملوءً بأفخر أنواع الحلوى؟ ولا يعرف أحد لماذا يحمل السكين معه، ومن أين حصل على كيس الحلوى؟

كل الناس تقول: أن عريف ربما يكون شخصا خطيراً جداً، توقف حديثه؛ لأخذ قسط من الراحة، يخرج خلالها سيجارة، وفي تلك الفترة نظرت إليه أم مروان وكأنها تستأذنه بالحديث.

وقالت بصوت منخفض: "إن عريف جاسوس، ويحاول نقل الأخبار من القرية".

ضحك خميس، وزوجته نفوز؛ لأنهم يعلمون أن عريفًا شخصًا لا حول له ولا قوة، ومصاب بلوثة عقلية وهائم على وجهه، ولا يعرف الناس.

كيف حطت رحاله في قرية السكة؟!

واصلت أم مروان حديثها: أعرفتم أن جارتنا صالحة سوف يطلقها زوجها؟؛ لأنها عارضت المختار في تسمية مولودها، فهي تريد أن تسمية مراد، يعني اسم(دلع) غريب علينا في قرية السكة؛ لأنها ما زالت تعتقد أنها مدنية؛ لأنها كانت تعمل خادمة عند عائلة في المدينة.

ضحكت أم مروان، وهي تكمل الحكاية، وقالت: سماه المختار خلف، واحتجت صالحة بصوت عالٍ أمام الحضور.

أكمل أبو مروان الحكاية، وهو يكيل الاتهامات إلى جارتهم صالحة، وكيف لها أن تقاطع المختار، وترفض كلامه؟ وتسبب الحرج لزوجها، حتى وصفه بعض أهل القرية، بأنه ليس برجل؛ لأن زوجته تكلمت وسمع الناس صوتها.

- مالك يا خميس؟ سألته نفوز، لقد سرحت.

-- لاشيء يا أم عامر، أعدِ الشاي للضيوف.

ما زال التقليد في قرية السكة، أن المرأة يجب أن لا تقاطع الرجال، ولا تتكلم أثناء حديثهم، ولا حتى مجرد أن تطرح أي فكرة، فهي جريمة وتستحق العقاب وأبسط أنواعه هو: الضرب، وأحيانا الضرب المبرح.

وإذا ذهبت إلى بيت أهلها، قد يضربها أبواها أوأخوها ويعيدها إلى بيت زوجها، صاغرة تعاني اشد أنواع الأذى النفسي.

فقد كانت حياتهن مأساة، لكن خميس ونفوز تخطيا تلك التقاليد، وقفزا إلى مستقبل أبعد من أحلام قرية السكة وواقعها.

لم يستطع خميس ونفوز أخذ أنفاسهما من حديث ضيوفهم، إلا في الفترة التي يخرج فيها أبو مروان سيجارة ليشعلها، وبعدها يدخل في موضوع جديد بمساعدة زوجته أم مروان، وبعد إفراغ الضيوف ما بجعبتهم، من وليمة النميمة والغيبة المسائية. سألهم خميس :لماذا ذهب شكري الخليلي إلى سعيد؟ وكان يريد أن يعرف إذا كان هنالك أخبارًا جديدة تهمه شخصيًا، أما إذا كان الأمر يتعلق بشراء مستلزمات الخطوبة، فهو أمر يعرفه خميس مسبقًا.

رد أبو مروان: بأنه سمعهم يتحدثون عن حياة بعض الفدائيين، وهل ما زال بعضهم موجوداً في قرية السكة؟

دهش خميس من آخر جملة لأبي مروان، وظهرت علامات الدهشة على وجهه، وأيقن أن القرية ما زالت تتحدث عن تاريخ خميس مع الفدائيين.

فقد ربط في ذهنه بين ما تكلم به شكري الخليلي، وبين ما يتحدث به أبي مروان حول نفس الموضوع.

بينما أخذت أم مروان تنظر حولها عدة مرات، وكأنها جهاز استطلاع، وبعد أن تيقنت بأن لا أحد يسمعهم قالت: سعيد مجرم أصلًا، ويجب أن يعاقب كما قلت في أخر جملة يا خميس، وعريف المجنون أفضل منه.

فهم خميس أن أبا مروان، وأم مروان كانا أمام منزله، وسمعا كل حديثه مع زوجته نفوز.

أرادت عائلة أبي مروان الانصراف، بعد أن أفرغا ما لديهما من حديث عند خميس.

وهنا أصر خميس على جلوسهم، وأراد أختبارهما فقال: ما حكاية سعيد مع أمه؟

نظر إليه أبو مروان نظرة استغراب وشك.

أنت تسألنا عن سعيد، وتريد أن نقول عنه شيئا، ونعاقب بعد ذلك!

لم تصبرأم مروان، وهي تحاول أن تخفي كحة اعترتها، فتنحنحت، وقالت: سعيد قتل أمه.

هرع أبو مروان، وأصابته حالة من الذعر الشديد، وأخذ يلتفت يمينه وشماله، وأصر على المغادرة.

اسمعوا قبل أن تغادرا، لقد كنت عند شكري الخليلي، وقد طلب منه سعيد، أن يحضر له كل مستلزمات الخطوبة، وهي من البضاعة الجيدة، وفيها دخان من النوع الفخم.

حضور مع سبق الإصرار

أثار حديث شكري الخليلي زوبعةً من الأرق في نفس خميس، لازمته طوال تلك الليلة، ولم يتمكن من الخروج منها، وثارت في نفسه تساؤلات عديدة جعلته يدخل في دوامة حقيقية؛ يقول في نفسه: قد اصطدم بسعيد أن ذهبت إلى خطوبة ابنه، وإن لم أذهب ستلاحقني لعنة الغياب، لا ألوم القرية في شيء فالذي بيني وبين سعيد، قد لا يتذكره أحد، وحتى قد لا يعرفه أحد.

كان سعيد يريد الزواج من أختي، لكن والدى أختصر علىَّ الطريق وعاقبه بما يستحق، لا أستطيع أن أتكلم في هذا الموضوع لأنها أختي، حتى سعيد لن يجرؤعلى فتح ذلك الموضوع؛ لأنه ضُرب وأُهين، وكان يستحق ذلك. ولا حتى أهل القرية يستطيعون الحديث في هذا الموضوع؛ خوفًا من سعيد، واحترامًا لمشاعري لن يتحدث أحد.

لقد عاث سعيد في الأرض فسادًا، جند العديد من الشباب في صفوف الفدائيين، وكان يخدعهم، سلب ونهب أثناء الحرب، لقد كان شيطانا في زي إنسان، لا أدري كيف استطاع الإفلات من كل جرائمه هذه؟!

وفي النهاية... أصبح شيخًا في القرية، فهل كان سعيد ذكيًا إلى هذه الدرجة؟ أم نحن كنا أغبياء؟

- مالك يا خميس، تكلم نفسك؟

-- لا شيء يا نفوز، أقول في نفسي: ربما إن تخلفت عن الحضور عن خطوبة ابن سعيد ، دبر لي مكيدة وحاكها بإحكام انتقاما مني.

أشارت عليه نفوز بأن يذهب ولا يتأخر، وأن يكون في الموعد المحدد، وفي مقدمة الحاضرين. وقالت: أنها سوف ترافقه إلى حفلة الخطوبة.

ليته لم يدعوني يا نفوز لخطوبة ابنه، لكنها عادات وتقاليد، سأذهب يوم الجمعة إلى حفلة الخطوبة إن شاء الله تعالى.

***

إنها خطوبة ممدوح بن سعيد على إبنة سالم، مرافق ومستشارالمختار، ليست ابنة عمه، كما جرت الأعراف والتقاليد في القرية، فأغلب الزيجات تتم بين أبناء العم، لكن سعيد وابنه فوق كل القوانين والأعراف؛ فشريعة الأقوى هي القانون بعينه عند سعيد، ولن يستطع أحدا أن يرفض طلبه.

واصل خميس مشوار الحوار مع نفسه:

أنا خميس مجرد شخص عادي، لن يكترث أحد بحضوري أو يهتم أحد لغيابي، لكني على أي حال أفضل من عريف قليلًا.

سأذهب لمشاهدة مسرحية متفق عليها، سعيد لن يرفضه أحد، والأدوار مقسمة بين الحضور، وأعتقد أنه قد جهزعددًا من أتباعه للشجار إذا حصل أمرًا طارئا، وحاول سالم أو أحد أقاربه رفض طلبه، أوحتى مجرد الإشارة بعدم الموافقة، سوف يحدث أمرًا لا يحمد عقباه، ولن تبخل جماهير المتطوعين للمشاركة في أي شجار؛ طمعاً في الوجاهة الاجتماعية، وبتّأكيد هم في صف سعيد دائما.

سأحاول أن استجدي عواطفي، أثناء ذهابي لمراسم الخطوبة، علها تجد متسعًا للفرحة حتى لو كانت قادمة من طرف سعيد.

وصل خميس برفقة زوجته أم عامر إلى مكان انعقاد مراسم الخطوبة (الجاهة)، متكأً على مرارة الأيام. وعند الوصول افترقا كلٍ إلى قسم معين.

جلس الرجال في بيت الشعر، بينما اصطفت النساء في ساحة بيت أهل العروس.

دخل خميس، وهو يحمل على شفتيه إبتسامة متهالكة. سلم وجلس في أطراف المجلس، لا يريد اقتحام ذروة الأحداث، أراد فقط أن يشم رائحة المناسبة عن بعد.

نظر حوله وشارك الحضور بصمتهم، لم يقدم له الصمت إضافة نوعية، فقد أعتاد عليه لسنوات طويلة.

لماذا يصمت الجميع في تلك الأثناء، وكأنهم على قلب رجل واحد؟ قال في نفسه: فهمت الآن؛ فالجميع يراقب الطريق المؤدية إلى بيت العروس، علهم يحفلون برؤية سعيد وهو قادم إليهم.

نعم لقد حضر سعيد، وهاهو يمتطي صهوة سيارة نيسان جنيور، آه يا سعيد، أنت الراعي الرسمي للاحتفال، أنت صاحب القرارالرسمي في تحديد الأدوار الاجتماعية في هذا اليوم، جملة الأغراض محملة في السيارة، ويجب أن يركب سعيد في نفس السيارة.

كم أتمنى أن ترى نفوز أم العروس الآن! وهي تتأمل جملة الأغراض في السيارة لتصف لي شعورها، أخالها سوف ترتاح عندما ترى أباريق الغسيل معلقة في زاوية السيارة.

لقد كبرت يا خميس، ولن ترى بوضوح عدد الخراف المحملة مع جملة الأغراض، لا مشكلة فهى في العادة ثلاثة إلى أربعة خراف، ولن يذبح منها إلا اثنين، ويعود الباقي مع أهل سعيد، بحجة قد يأتيه زوار إلى البيت، وهذا جزء من المسرحية المتفق عليها.

أعتقد بأن المشهد العام للخطوبة، قد بلغ الذروة بقدوم سعيد.

إنه التاجر الخليلي شكري، فهو في غاية السعادة، وهو يركب مع سعيد في نفس السيارة، أعتقد أن جميع الأغراض (الجاهة)، قد اشتراها سعيد من محلاته، فحلو الناشد، ودخان الريم، والجولد ستار، من محله التجاري. وبكل تأكيد سوف يوزع الحلو والدخان بحسب المكانة الاجتماعية، وحسب جلوس الشخص، وبما أني خميس وأجلس في أطراف المجلس، لن يصلني إلا حبات من الفستق وقليل من بذر البطيخ البائس، لقد استطاع أن يحضر كل ما هو مطلوب من الأغراض التي تلزم هذه المناسبة، وبذلك سيصبح من المقربين من سعيد، حتى المختار ما زال يتقن الدور.

بالأمس لم يكن يشتكي أى علة تذكر، وهاهو الآن يتهادى بين الرجال، حتى يتم إجلاسه في مكان معين يراه الجميع، لقد أضحكتني يا مختار، ومنذ

مدة لم أضحك، ما زال يعتقد: أن ذلك المنظر يمنحه فرصة كبيرة بألا يتم رفض طلبه؛ لأنه كبير (الجاهة).

وما هي إلا دقائق حتى يستعيد أبو علي عافيته، عندما يوضع فنجان القهوة أمامه، يا لها من لحظة! ويا لها من مكانة اجتماعية سيبلغها المختار! فهذا الموقف يعزز مكانته عند سعيد، سيتكلم المختار بجمل حفظناها عن ظهر قلب، وفنجان القهوة أمامه، بأنه يريد طلب يد العروس للعريس ممدوح ابن سعيد، الآن سيمنع الكلام، وجميع الوجوه صامتة تنتظر الإجابة.

أنا خميس، وما زلت في نظر الحضور، خميس الفدائي المجرم، خميس الذي يجب أن يعاقب، ويستمر عقابه إلى الأبد.

وهذا عريف يظهر بجنونه أمام الناس، لا يحفل به أحد، والفائدة الوحيدة من وجوده هى: السخرية منه؛ لكنه جاء وكله أمل في أن يحظى بنصف دينار، أو قطعة حلوى أو كأس شاي، رغم عدم حبه لسعيد، لكن الحاجة والفضول أشياء أخرى، جعلته ضعيفًا أمام مبادئه البسيطة.

لقد تمت الاستجابة إلى طلب المختار، أراه يتناول فنجان القهوة ويشربه بعنف، بدت نظرات الارتياح في عينيه، والآن... سيتم إطلاق العيارات النارية إيذاناً بموافقة أهل العروس.

لقد اصطف الجميع للمباركة لسعيد وابنه، ويجب علىَّ مشاركتهم.

- خميس أنت خميس؟

-- نعم أنا خميس بشحمه ولحمه

- أين سلاحك اليوم؟

-- لماذا السلاح يا سعيد؟

تطلق النار بفرحة ابني، أتركت إطلاق النار؟ الله يرحم أيام زمان، أهلا وسهلا بك يا خميس، وإن شاء الله نبارك لك ، بفرح ابنك عامر،صمت خميس قليلا وحدث نفسه:" سعيد شرير في نظري، لكنه في النهاية إنسان، وقد يصدر شيء جميل، لقد خف غضبي قليلًا؛ عندما تمنى أن يشاركني فرح ابني عامر، هل أصدقه فيما يقول؟

حـــوارالـنفـس

أوشك الظلام أن يبتلع المكان، عندما كان خميس جالسا مع أم عامر، تساءل في نفسه: هل سأبقى هكذا؟ ماذا أنتظر؟ مرة أعتقد أن سعيدًا قد يصبح صديقًا لي، لمجرد أنه قد يشاركني فرحتي بخطوبة ابني عامر، ومرة أعتقد أن سعيد عدوي، ولن يصبح صديقي مهما فعل، لا بد أن يكون لي موقفًا حتى مع نفسي.

أحذر نفسي من الاعتقاد، بأني سوف أترك فراغاً أن بقيت صامتاً هكذا، أنا الفراغ كله، لقد أوجعتني يا صمت، نحن نستحق الحياة لأننا نحبها، ولم أذرف دمعة واحدة في حياتي أمام الناس .

استعرت عيون زوجتي لهذه الغاية، دموع بالنيابة عني؛ ولا أريد أن أبقى هكذا، ولا أريد أن يبقى سعيد يعيش بداخلي، يشكل إحساسي، رغم أنه إنسان مثلي.

جلست نفوز بالقرب من خميس، وقد بدا عليها خليطًا من الحزن والغضب، وأخذت تحاول السعال للفت انتباه خميس له، وأنها تحمل كلامًا يجب أن يقال، انتبه إليها خميس، وفهم أنها تريد أن تقول شيئًا ما.

- مالك يا نفوز؟

هل استمتعت بحفلة خطوبة ابن سعيد؟

ترددت نفوز في الاجابة عن سؤال خميس، لكنها شعرت بأن الأمر مهم، ويجب أن تخبر خميس بما حصل معها.

-- وقالت: سمعت اليوم كلامًا غريبا في خطوبة ابن سعيد.

- كلامٌ غريبٌ .. ماذا سمعت يا نفوز؟

-- لقد جرحتني أم العريس، زوجة سعيد.

- كيف يا نفوز؟ وماذا قالت؟

-- قالت لي: حفلة خطوبة رائعة، وكل الحضور من الوجهاء، لا تشبه خطوبتك يا نفوز، وهذا نسب له قدره بين الناس.

قلت لها: وما لها خطوبتي يا أم ممدوح؟

لقد خطبك خميس، وهو في السجن، يعني مجرم (خريج سجون).

ضحكت معظم النساء الحاضرات، وشعرت بأن الجميع يرمقني بنظرات إزدراء، حتى فريدة الفلاحة زوجة شكري، بدأت بلهجتها الخليلية تتحدث بما لا تعرفه إرضاءً لأم ممدوح.

آه ياخميس! لقد أضافت أم العروس زوجة سالم كلمات قاسية أيضًا، واتهمتني بأني قد أقوم بعمل حجاب (شعوذه والعياذ بالله) لِابنها؛ لأفسد الخطوبة.

لم أكن أعرف طوال تلك السنوات، أن نساء القرية ينظرن إليَّ بهذا الشكل، ماذا جرى للدنيا؟

آه يا خميس! كلماتهن كانت قاسية جداً، لم أستطع الدفاع عن نفسي، لكن غيرتي منهن جعلتني، أتحدث بكلام ليتني ما تحدثت به! لقد خرجت من فمي كلمات تحت التهديد النفسي الذي عانيته في تلك اللحظات قلت لهن:

" لقد سجن خميس وهو يدافع عنكم، وعن أولادكم؛ فهو أفضل من زوجك سعيد الحرامي، ترك أمه تموت وأهانها أمام الناس، ولا أحد يحبه أصلًا في هذه القرية، ولو طلب أي فتاة أخرى لن يزوجه أحد، وقلت لها أيضًا: " زوجك سعيد إنسان ماكر خداع، وسوف أخبر خميس وينتقم منه،

وأنتي يا فريدة، زوجة شكري الخليلي زوجك تاجر وسعر بضاعته أغلى من باقي المحلات.، وسوف أخبر خميس :ألا يشتري أي شيء من محلاتكم، وأتمنى أن يقاطعكم كل أهل القرية.

آه يا خميس! أحمد الله أن باقي كلماتي لزوجة شكري لم تفلت من فمي.

-- أكملي يا نفوز، ولا تبكي، أريد أن أسمع كل ما حدث.

كنت سأقول لها أنكم لاجئون في بلدنا لا أكثر، ولا أقل، وكنت سأقول لها يا فلاحه، والله يا خميس كانت مجرد كلمات، ولا أعرف كيف تسللت إلى إحساسي؟ والحمد لله أني لم اقلها.

حاول خميس ألا ينفجر بركان غضبه في تلك اللحظة، شعر بأن زوجته نفوز قد أماطت اللثام عن عش الدبابير، لم يتعود على توجيه كلمات قاسية لزوجته، مع أن الموقف كان يتطلب ذلك، لقد ذهل من كلام زوجته وكيف استطاعت أن تجرؤ على قول مثل هذا الكلام خصوصًا لزوجة شكري، ثارت في نفسه عاصفة من التيارات المتجاذبة، وتساؤلات كادت أن تودي بحياته.، لكن كتم الغيظ وصبر على الموقف.

لقد أخطأت في ردي يا خميس، وكان الأفضل أن أبقى صامتة؟ وكان من الأفضل ألا أذهب إلى الخطوبة من الأصل، لقد سببت لك المشاكل.

أنتبه خميس للموقف، وتنحنح وكأنه يريد العطاس؛ لإخفاء غضبه، لا يريد أن يجرح شعور زوجته حتى أمام نفسه، إنها الشرارة الأولى في الصراع المبطن بين عائلة خميس وسعيد، قد ظهرت للعيان.

وعندما استعاد توازنه قال: لعن الله سعيد، أما أنت يا نفوز، لقد فتحتِ علينا طاقة جهنم! سوف تخبر زوجة سعيد زوجها بما تحدثت به، وأكيد لن يتركنا وشأننا، سوف يعيد الماضي من جديد، وأنا لا أريد استعادة محن الذكريات يا نفوز، لكن لا تهتمي لقد فعلتِ ما عجزت أنا عن فعله، لكني أثرت النسيان على البوح بالكلام، لم أبوح بما أريد، ولم أستطع النسيان.

لا تهتمي يا نفوزإذا كان الموت قادماً، دعينا نموت بأدب وفي هذا العمر بالذات، أنا خبير يا نفوز في مجال الفجيعة، لقد دخلت الجيش في ١٩٦٥م، وذهبت إلى المعسكر في مدينة التجنيد، هو في الزرقاء، وكنت لا أعرف شيئا، حتى أبسط المهام المطلوبة مني كجندي، لكنني وجدت سعيداً

أمامي في الجيش، كان يعمل طاهيًا، وكنت لا أعلم حجم الحقد والكراهية في نفسه تجاهي، أو تجاه عائلتي بأكملها.

سعيد حقير من يومه، لم يتركني في تلك الأيام، فكيف سيتركني الآن؟

كم أنا مثقل بالغصة، ومصدوم يا نفوز! والحمد لله أنك لم تقولي لزوجة شكري الخليلي، أنهم لاجئون عندنا.

لو كنت قلتيها لن أسامحك يا نفوز، أنهم أهل لنا وجزء منا، وكلنا نكمل بعضنا بعض، الحمد لله أنك لم تقوليها، وإذا كان هذا الشعور موجوداً في

داخلك، أرجوك أن تنزعيه يا نفوز، ولا تحاولي أن تحدثي نفسك به، ولو على سبيل التفكير.

شعرت نفوز أنها عكرت صفو خميس، وأرادت أن تفرغ شحنات الغضب من داخلها، فأشارت إليه بيدها وهى مقبوضة بشدة ،في محاولة منها، لتغيير مجرى سير الكلام.

سعيد إنسان جبار وظالم، أتذكر يا خميس قساوته مع أمه؟ إذا أنت نسيت أنا لن أنسى؟ لقد رأيته وسمعته، يوجه إلى أمه من الكلام القاسي، ما لم تستطع ملامحها أن تتحمله.

لم أتمالك نفسي يومها من البكاء، ولكني عجزت عن فعل أي شي لإنسانة كانت تحبني كثيراً.

فما زالت رائحة ثوبها العتيق في أنفاسي، وما زالت رائحة الطيبة منها تفوح حولي.

ما زلت أتذكر يا خميس، عندما قال سعيد: لأمه بصوت مرتفع: (بعدك طيبة) ؟ كلفتِ السيارة لنقلك إلى المستشفي مبلغاً من المال، نحن بحاجته (إحنا أولى) وقال: أف مرات متتالية، وردد كلمات أشد قسوة من سابقتها: لولا خوفي من الناس، لأبقيتك تموتين هنا، ومع ذلك خرج نبع الحنان من داخلها، وأشارت إليه بيدها ، أنها لا تريد الذهاب إلى الطبيب، يعني وفر فلوسك ما في أمل.

يا لها من لحظات عشتها! ومازال المنظر يعيش بداخلي، فعندما توجه سعيد، يأخذ أمه إلى السيارة، قال لها: قومي قومي، (هسا مش قادره تقومي) وأمسكها من كتفيها، وسحبها بقوة شديدة، وهنا نطق لسانها بكلمات بحجم الأسى نفسه: (شوي يمه شوي، يمه حرام عليك) لكن قلبه الغليظ لم يسمع، ولم يفهم بأنها تتألم وبشدة، وجرها إلى السيارة، وقدماها الصغيرتان تصطدم

بالحجارة والشوك، وكأنه يجردابة، أو قطعة متاع ليس لها قيمة، والمصيبة الكبرى عندما وصل باب السيارة، دفعها بقسوة داخل السيارة، وكأنها لا شيء.

آه لتلك اللحظات، لقد رأيت الحسرة في عينيها ولم أكن أعرف أنها حسرة الوداع الأخير، وأجزم بأنها ماتت في تلك اللحظات.

نظر إليها خميس في عينيه كلمات، وكلمات، لعنة الله على سعيد، لقد كافئه أهل القرية بأن أصبح من الوجهاء أصحاب القرار، والقرار النهائي.

- لا تخف يا خميس، أن الله قدير على كل شيء.

-- يا نفوز كلهم أصبحوا سعيد المختار، وأبو سالم النسيب الجديد، وحتى شكري الخليلي، ماذا جرى للدنيا يا نفوز؟ حتى عريف ما زالت كلماته غير مفهومة لدى، ترى ماذا يقصد بكلماته؟

غاص خميس في تفكير عميق ومتشعب وفي نفسه أسئلة كثيرة.

هل سيتركنا سعيد، بعد أن أشعلت نفوز شرارة الحرب من جديد، وتكلمت عليه أمام النساء ؟

لماذا نظر إليَّ سعيد؟ وقوله لي: لماذا لا تحمل سلاحاً الآن؟ وقوله لي أتذكر أيام زمان؟ أكيد سيعمل ما بوسعه لِلانتقام مني.

آه علي حالي عندما دخلت الجيش، لم أكن أعلم بأنه سيكون هنالك فدائيين في يوم من الأيام، دخلت بهدف تغيير حياتي، ومن أجل أمي وأبي، وقاتلت في أيام الشدة، وما زلت أذكر البنطال الأسود(حيلتي)، عندما أردت الذهاب للجيش، والذي لبسته مدة شهر تقريباً، و تغير لون ركبتيه، والجاكيت البني الذي تساقطت أزرته، وصندل البلاستيك الموصل بعضه بعض، وكأنه قطعة من العذاب.

آه على أمي رحمها الله! وكيف باعت ثلاث دجاجات لتأمين ملابس جديدة لي، من أجل أن أذهب بها إلى التجنيد، وسعال أبي المتكرر، بسبب أني سوف أتركه وأغيب عنه مدة طويلة، فمن بعدي لن يساعده أحد، ومع ذلك ذهبت وتركته، ولكن الأمر لم يثمر إلا مزيداً من العذاب والحسرة.

لقد دفعت الثمن، وحكم عليّ بالسجن عشر سنوات، دفعت الثمن؛ لأن نفسي كانت أمارة بالسوء.

منتصف الذاكرة

بعد إنقضاء مراسم الخطوبة، أنصرف الحضور إلى منازلهم، جلس سعيد في بيته، يستقبل بعض المهنئين، الذين لم يتمكنوا من الحضور أثناء حفل الخطوبة، ولفت انتباهه أن زوجته أم ممدوح، تتحرك أمامه بشكل غير طبيعي، وكأنها تحمل خبرًا مهمًا، وما أن سألها أن كانت تريد قول شيء معين، حتى انفجرت، وكأنها بركان لاهب.

- أسمعت ما حصل يا سعيد؟

-- وما الذي حصل؟

- زوجة خميس أم عامر.

-- ما لها؟ ألم تحضرإلى الخطوبة؟ لقد رأيت زوجها السيئ خميس، وصافحني وبارك لي.

- لقد حضرت، ويا ليتها لم تحضر، أهانتني أمام النساء، وأهانتك أنت ايضًا.

اخذ الشرر يتطاير من عيون سعيد، وماذا قالت؟

- لقد كنت أمزح معها، وقلت لها: أن خطوبة ابني كلها من الوجهاء، وفيها حضورمميز، ليست مثل خطوبتك أيام زمان.

فما كان منها إلا أن قالت: لقد كانت خطوبتي أجمل من هذه الخطوبة، ولا يوجد وجه مقارنة بين خطوبتي وخطوبة ابنك، حتى زوجك سعيد.

-- أ كملي ماذا قالت أيضًا؟

- لا أستطيع التكملة.

-- كفي عن البكاء، لقد اشتاط غضبي، أكملي القصة.

- قالت: أنك ماكر وخداع، ولص أيضًا، وقتلت أمك.

-- لعنة الله عليها، وعلى زوجها، أهى قالت هذا الكلام؟ سوف اغلق فمها إلى نهاية عمرها، وسوف أقتل زوجها الجبان خميس.

- تمهل يا سعيد ،لا تلوث يديك بدمائهم.

-- اسكتي أنت السبب، لماذا بدأتِ معها الكلام؟ مع أني أعتقد أن نصف الحقيقة، لم تقوليها، بِاللهِ عليك، ألم تشمتي بها، وتقولي لها أن زوجها كان في السجن عندما خطبت له؟

- أحببت أن أمزح معها فقط، ولم أقصد السجن بمعنى الكلمة، حتى فريدة زوجة شكري ناصرتني عليها، وكانت في صفي.

-- حتى زوجة شكري تدخلت أيضًا، أنهم غرباء فكيف سمحتِ لهم بالتدخل والدفاع عنا، وكأننا ضعفاء! لقد فتحتِ علينا عش الدبابير، وسوف يجدها خميس ذريعة له للكذب عليّ وتشويه سمعتي، والانتقام مني.

- ينتقم منك لماذا؟

-- لا تتدخلي في الموضوع، اسكتي، أنا سعيد وكل الناس تعرفني، تتجرأ زوجة هذا الجبان علينا، إنه عدوي من زمن قديم، وسوف أنتقم منه هذه المرة، لا محالة.

- لماذا هو عدوك يا سعيد؟ أنت تردد هذه الكلمات دائمًا، ونحن لا نعرف سبب العداوة.

- لا شأن لك بذلك، قومي من أمامي، وقولي لممدوح: أن يذهب، ويأتيني بالمختار وسالم فورًا.

في تلك اللحظات سيطر الغضب على سعيد، وبدأ يفكر في كل الاتجاهات الممكنة للإنتقام من خميس، وتصفية حسابات سابقة، لا يعرف

أهل القرية تفاصيلها، وأخذ يدور في أركان بيته ذهابًا وإيابًا، حتى تعب وجلس على كرسي منعزل، في أطراف بيته وأخذ يفكر بالموضوع من كل أبعاده، وبعد أن هدأ قليلًا سرح بتفكيره في عدة اتجاهات، وشبك أصابعه ببعضها ووضعها أسفل ذقنه، وسرح بأفكار بعيدة، استحضرها من طبيعة الموقف، وقال في باطن تفكيره:

لعنة الله عليك يا خميس، لقد أفسدت فرحة خطوبة ابني بمجرد حضورك، لقد رأيت القوة في عينيه، عندما صافحني، وبارك لي بخطوبة ابني.

لقد لاحقني منذ أيام السموع في الخليل، ولولا هروبي من المعسكر لقتلني، لقد ساعدته لدخول صفوف الفدائيين، من أجل أن يقتل أو يقبض عليه، وفي كلتا الحالتين كنت سأتخلص منه، أهانني أهله؛ لأني كنت على علاقة بأخته سلمى، كنت أنوي الزواج منها، لكن سمعتي كانت سيئة، وحاولت استغلال تلك العلاقة لأغراض دنيئة في نفسي، قد كانت سلمى بنت شريفة، ولكني كنت نذلًا بما يكفي، الحمد لله أنهم اكتشفوني قبل أن أسيء لها، لكنهم أهانوني كثيرًا، وبالغوا في ذلك، واعتقد أن خميس لن ينسى ما حصل.

أنا إنسان في النهاية، لكن الناس اعتادوا على قسوتي، ومهما فعلت لن أغير تصرفاتي، فلن أظهر أمام الناس إلا سعيد الغير متساهل، لكني أريد أن أتغير، أنا من الداخل إنسان طيب، لكن لن يقدر طيبتي أحد.

اعتقد أني الآن في وضع غير طبيعي، وأفكر بالماضي كثيرًا، وكل هذا لأني صافحت خميس اليوم، وتجرأت زوجته علينا، لن أتغير، بل سأبقى هكذا.

خميس ذاك الإنسان العنيد، ما زال يلاحقني، ليتني قتلته أيام أحداث الفدائيين، فقد كانت الفرصة سانحة لي، لا أدري كيف سمحت لنفسي أن أنساه كل هذا الوقت؟ لقد كنت قويًا بما يكفي لقتله في تلك الأيام.

واصل سعيد حديثة مع نفسه: يعتقد أهل القرية أني إنسان قوي ومسيطر، وهم لا يعلمون أن وجاهتي وقوتي، هما: نتاج ضعفهم.

لم أجد شخص في القرية، وقف في وجهي، أوسوف يقف في وجهي في يوم من الأيام إلا ذاك اللعين خميس.

لقد كنت مشردًا في بداية حياتي، وكافحت حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن، لقد اتبعت كل الوسائل الممكنة إلى صناعة نفسي، ولكني

من الداخل مهزوز وبطل من كرتون، لقد سلبت ونهبت وخدعت الناس، وامتلكت

المال الكافي؛ لأظهر بهذا الشكل، لقد منحني المال الهيبة أمام الناس؛ لأنهم بسطاء ويعتقدون أن الإنسان الغني، إنسان نبيل، وأنا أكبر مخادع في هذه الدنيا، لكني لن أضعف أمامهم، وسأبقى سعيد القوى، سعيد صاحب السلطة.

يجب أن يبقى اسم سعيد موجودًا، سعيد دون أي لقب.

سأقمع كل محاولة في القرية للتمرد عليَّ، سأقتلع المختار من جذوره، أن فكر في يوم أن يرتفع صوته فوق صوتي، وقد قلت له ذلك، وأعتقد أنه يسير في فلكي، ولن يخرج عن مساره.

لكني ما زلت مهزوزاً من الداخل، فعندما رجعت إلى هذه القرية مجددًا، بعد إنتهاء الأحداث، أحضرت معي المال الكافي لأظهر هكذا، ولم يجرؤ أحد، أن يسألني من أين لك هذا؟ لقد بعت كرامتي أمام المال، وبعت كل مبادئي رغم أني لا أملك منها شيئا.

ويعتقد أهل القرية المساكين، أني معروف، ولي أصدقاء كبار، أستطيع أن افعل ما أريده، عن طريقهم، كل هذا وهم، وكذب اخترعته من تلقاء نفسي ؛ لأصنع لنفسي زعامة في القرية.

سلبت أنا وفيصل، المحلات التجارية في هذا البلد، وسلبنا العائلات التي نزحت من فلسطين، ولم نقصر في ذلك، ضحكت على فيصل واللصوص رفقائنا، وأخذت الثروة وحدي، والغريب أن أحد منهم لم يراجعني في الموضوع، لغاية الآن إعتقادًا منهم، أني أستطيع القضاء عليهم في أي وقت.

آه على نفسي، لقد أسأت إلى أمي، وكم أتمنى أن تسامحني، لكنها ماتت ، لم أكن أنا السبب؛ لأنها إرادة الله، لكني قصرت في حقها كثيرًا، وكان تعاملي معها قاسيًا جدًا، حتى لم أكن إنسانًا في تلك اللحظات، وهذه أكبر مآسي حياتي.

ما زلت أتذكر عندما سحبتها إلى السيارة، وهي تقول :(شوي يمه حرام عليك).

أين كان عقلي في تلك الحظات؟!

في تلك اللحظات، وجد سعيد شيئًا غريبًا، لقد أحس بأن دموعه تسيل على خديه، فنفض رأسه بسرعة، خشية أن يراه أحد ويقول سعيد يبكي.

وواصل حديث النفس: من زمن لم أشعر أن دموعي تسيل على خدي إلا الآن.

لن أكون ضعيفًا، سوف ألقن خميسًا وزوجته درسًا قاسيًا، إنها بداية التمرد على هيبتي في القرية، لم يجرؤ أحد على الحديث عني بهذا الشكل، ولن أسمح بذلك، سأستغل الموقف حتى لو كان كلام زوجتي غير مقنع، سوف أضخم الموقف، بما يكفي؛ لأعرف ميول أهل القرية تجاهي، حتى المختار، والنسيب الجديد، سأختبر مواقفهم ،ومن لم يكن معي، فهو ضدي.

الرجـوع الأخـير

لا أريد الجلوس مثل النساء الطاعنات في السن، أمام عتبات المنازل، ينتظرن أن ينقضي ما تبقى لهن من عمر، حتمًا ستكون نهايتي بهذه الطريقة مفجعة لي وحدي، هكذا قال خميس لنفسه، وهو ينتظر أن تأتيه فكرة يستعد من خلالها للموقف القادم، لكن افكاره لم تستقر، ففضل أن يشرب فنجان قهوة.

- يا نفوز، أحتاج فنجان قهوة؛ كي أفكر بالأمر جيداً.؛ كي أستعيد نشاط ذاكرتي، وأستعد لمعركتي القادمة.

-- حاضر يا خميس، دقائق وتكون قهوتك أمامك.

صمت خميس، وهو ينتظر فنجان القهوة، فدخل في نوبة فكرية مرة أخرى، وحدث نفسه :

"كانت نفوز أشجع مني، بل أشجع من كل أهل القرية" صحيح أن كلامها مع زوجة سعيد، جاء كردة فعل، وتعبيرعن لحظة إنفعال، لكنها تكلمت وأصبح لها موقف، لا يمكن أن تبقى كلماتي معرضة للقبض عليها، بأية لحظة، ولا يمكن أن أبقى شريراً أمام الناس.

أنا في النهاية إنسان، وحياتي ليس لها مالك غيري، يستحيل أن تدجن بهذه الطريقة؛ لتعيش هكذا بهذه القرية.

لماذا لا أسجل موقفاً كهذا ، يشفع لي فيما تبقى من العمر؟

سأبحث عن نفسي؛ ليعرفوا من أنا؟ لتفهم كل القرية كلها أني لست مجرمًا، فالنمل متشابه تمامًا، لكنه يعرف بعضه بعض، وأريد أن يعرفني أهلي في جميع أجزاء قرية السكة، فأنا أشبههم، ورائحتي تشبه رائحتهم.

سأتحدث مع أهل قرية السكة، إنهم أناس طيبون، وسوف يقفون معي في مواجهة سعيد، سأستغل وجود شكري الخليلي، حتمًا سيكون معي، ولن يتخلى عني؛ وسوف نضع حداً لسعيد وجبروته وطغيانه، بدلا من أن نبقى هكذا، ويدبر لنا المصائب ونحن ننتظر، فتغرق القرية في مصيبة أعظم من مصيبة الصمت.

أحضرت نفوزالقهوة، وكانت مشيتها بطيئة، لقد أعيتها الهموم، والخوف من حدوث أمرما، فهى بطبعها تحس بالمصائب، وتتوقعها قبل حدوثها، وفي تلك الأثناء حضر عريف إلى بيت خميس، وكعادته أخذ يتمتم بصوت عال: هيه هيه سلام سلام، نظر إليه خميس، وقال له:

تعال يا عريف تفضل، أنت الوحيد مرتاح في هذا العالم، لا هم دنيا ولا عذاب آخرة.

نظرعريف إلى فنجان القهوة، ولسان حاله يقول: لا أريدها، إنها أشد مرارةً من طعم أيامي، لكن لونها مشابه تماما لحياتي بكامل تفاصيلها.

- أتريد فنجان قهوة يا عريف؟ أنها بدون سكر، أشارعريف بكلتا يديه، وبنبرة إنفعال أنه لا يريد.

أراك تنظر إلى فنجان القهوة يا عريف، وأتخيل أنك تقول في نفسك: كل هذا الفنجان! وكل هذا الاهتمام، للقهوة وهي بدون سكر؟ لا عليك سوف نعد لك الشاي، وعليه كمية سكر، ترضي طموحك في هذا المساء.

الناس يحسدونك يا عريف، حتى على جنونك، ويقولون:"عريف مرتاح البال"،وهم لا يعلمون ما تعانيه، حتى الأطفال يلاحقونك بكلامهم، وبحجارتهم أحيانًا، لا عليك يا عريف، فأنت أفضل منّا جميعًا، فإن حدثت لك مشكلة، فلن تقلق في كيفية حلها.

الجـانــب الآخـــر

حضر سالم والمحتار إلى بيت سعيد، ورافقهم بعض الفضوليين من أهل القرية، وكان مسرهم على عجل، رغم انتشار الظلام، فلفت ذلك انتباه كل من شاهدهم، لقد كانت حرارة الجو عالية بما يكفي، فجلس الجميع خارج منازلهم، ولسان حالهم يقول: فليرزقنا الله بنسمة هواء تلطف حرارة الجو.

وفي بيت سعيد، كان بركان الغضب يتدفق بكلمات الانتقام من خميس وزوجته، ولم يسلم مختار القرية من التهديد، إن تأخر أو تباطأ في موضوع خميس وزوجته، لقد سمع مختار القرية، ومنذ دخوله بيت سعيد، وابل من التهديد والوعيد، جعله يفكر بمصيره كمختار للقرية، ولم يكن سالم النسيب الجديد بأفضل حال، لقد خاف على مصير ابنته، إن غضب عليه سعيد، فلم يكن أمامه إلا خيار وحيد وهو: أن يقف في صف سعيد.

تكلم سعيد بصوت عال، وكان قصده أن يسمعه أكبر عدد ممكن من أهل القرية:

"أنا سعيد وكلكم تعرفونني، لقد أهانت زوجة خميس زوجتي، وأهانت ضيوفي في خطوبة ابني، وأكيد سمعتم ما قالته عن طريق زوجاتكم، لقد

عبرت عن حقد دفين في قلبها تجاهي، وتجاه أسرتي، وأعتبركم كلكم أسرتي، وإهانتي هي إهانة لكم جميعا.

أنا سعيد، ومعروف في كل أنحاء البلد، ولي معارفي من وجهاء أصحاب نفوذ، وسلطة كبيرة، وأستطيع أن افعل ما أريده.

أنت يا مختار، عليك أن تذهب إلى خميس، وتخبره أني أريد أن أقاضيه على كلام زوجته، وأطلب منه حقي وحق كل أهل قرية السكة، وأريد أن أفضح أمره بين الناس.

إنه خميس الفدائي المجرم، يكره كل شخص فيكم، وله اتصالاته السرية، وينشر الفساد بين أطفالكم، إنه مجرم، ويجب أن يسلم إلى العدالة من جديد، ويسجن أو يعدم، وإن لم تفعلوا، سوف يقتل بعضكم بعضا، وتنشب بينكم العداوة والبغضاء، ويكره كل واحد منكم أخيه، وأحذرك يا مختار من الاستهانة بالموضوع، وأنت تعرف ردي مسبقًا، إذا لم تقم بواجبك هذه المرة.

فتن الجميع بفصاحة لسان سعيد، فقد كان سابقاً يتحدث بالإنابة عبر المختار، ومعاونه سالم، لكن الأمر يتعلق بخميس، فقد نطق لسانه عندما سنحت له الفرصة.

ارتسمت الدهشة على بعض الوجوه، من بعض العبارات التي قالها سعيد، وعبارة أن الجميع إخوة له، بقيت عالقة في أسماعهم، إنه يتكلم بكلام يشبه كلام نشرة الأخبار، فهم يسمعون الأخبار أحيانًا، لكنهم لا يفكرون بعمق الكلام ومعانيه، ولو من باب الفضول.

أما المختار فأصبح في موقف صعب، وأمام خيار واحد، وهو الوقوف في صف سعيد، أو فقدان منصبه فورًا، فاخذ يتفحص الوجوه على عجل، لاختيار من سيرافقه إلى بيت خميس؟

الجميع في موقف صعب، عاشوا لحظة انقسام داخلي، فريق مؤيد لسعيد دون معارضة تذكر، فهؤلاء يغضبون من غضب سعيد، دون أن يعرفوا السبب، متطوعون وطامحون بالوجاهة الاجتماعية، وفريق آخر لم يصدقوا كلام سعيد، لكنهم أثروا الصمت، وامتنعوا عن التعليق، أو التصفيق لكلامه، وحلموا برؤية أي نتيجة كانت لصالح خميس، دون أن يعرضوا أنفسهم لأي مسائلة، وفريق ثالث غير مكترث بالأمر؛ لأنهم لا يريدون امتلاك خيول للمشاركة بأي سباق كان، واعتبروا خلاف سعيد وخميس خلافًا داخليًا وخاصًا، ولا تعنيهم المشاركة فيه.

لم يتمكن مختار القرية، وسالم معاونه الأبرز، من الدفاع عن خميس؛ لأن خميس مدان حسب أعراف القرية، بما صدر من زوجته من كلام، إضافة إلى رهبتهم من سعيد وخوفهم منه، واستجابة للموقف، ذهب المختار وجمعٌ من الناس إلى بيت خميس؛ ليخبروه أنه مذنب ويستحق العقاب.

الكل ذهب، وكل الأقسام ممثلة بهم، المؤيدون والصامتون، والحيارى.

***

استمر خميس في حديثه العبثي مع عريف، وهو يدرك في قرارة نفسه، أن عريفًا لن يستطيع أن يقل له شيئًا،أو أن يقدم أي مساعدة تذكر، وكذلك نفوزحيث أشارت برأسها أن عريفًا عديم الفائدة، وقد بدت منكسرة الخاطر، لما حدث معها، نظر إليها خميس وقال: لا تقلقي يا نفوز، فأنا خبير في عالم المحن، وأعتقد أن سعيد يحضر الآن لأمر ما، لا تقلقي أن الله سيكون معنا؛ أحضري لعريف الشاي، وأكثري فيه من السكر.

-- حاضر يا خميس، عريف يستحق اكثر من السكر، أنه إنسان مسكين، وأعتقد أنه قد فهم بعض الحديث، ولم يقل شيئًا.

- وما الفائدة من كلامه؟

إني أسمع أصواتًا يا خميس، أعتقد أنهم قرب الباب، ينادون عليك، إنه المختار ومعه عدد من الرجال.

- الله يستر. ماذا يريدون؟

-- رحب بهم يا خميس.

- تفضلوا وادخلوا.

وقف عريف على قدميه، وأخذ يشير بكلتا يديه إليهم ويقول: هيه، هيه.

- السلام عليكم. كيف حالك يا خميس؟

-- أهلًا يا مختار، نحمد الله تعالى، هلا يا سالم أهلا بالجميع، تفضلوا اجلسوا.

لم نأتِ للجلوس يا خميس، نحمل لك رسالة من سعيد.

- رسالة يا مختار، ومن سعيد، لقد سبقني اذاً.

-- سبق على ماذا؟

- لا شيء يا مختار، تفضل هات ما عندك.

-- سعيد غاضب منك كثيراً، لحديث أم عامر مع زوجته، ويريد أن يحاكمك.

استمرعريف يحرك يديه، وكأنه يريد أن يساند خميس في موقفه بقوله: هيه هيه، فنهره سالم بصوت عال وقال له: اسكت يا مجنون، أنت لا تفهم أي شيء، اسكت!

ظهرت علامات الغضب على وجه خميس، وسط ذهوله بالعدد القادم إليه ،وهم يحملون رسالة سعيد.

يحاكمني سعيد، وهل أصبح قاضياً أيضًا؟ وأي حق يا مختار، يريده سعيد؟ وهل مثل سعيد يعرف الحق؟ وإذا كان له حق عندي كما تقولون، لماذا لم تعطوه أنتم حقه بالنيابة عني؟ ألست أنا من قريتكم يا مختار؟ أم أنك، ومن معك تقفون في صف سعيد؟

أخذ المختار يسعل بصوت عال، وأخذ يحاول إظهار خميس بمظهر الإنسان الذي يريد أن يتهرب من الامتثال لأحكام القرية.

هذا بالطبع سيمنحه فرصة تسيد الموقف، إن هو قدم خدماته إلى سعيد في هذا الموقف، هكذا ظهر موقف المختار أمام الناس، لكنه من الداخل في

موقف لا يحسد عليه، إما أن يقف مع سعيد ، ويحتفظ بلقب مختار، أو يعجز عن أخذ حق سعيد من خميس، ويفقد لقبه وهيبته، ويتحول إلى مواطن عادي في القرية، لا حول له ولا قوة، دون الاكتراث إلى أن خميس قد يكون له حق أيضًا، فزاد سعاله وكان في هذه المرة سعالاً حقيقًا، لقد شعر بنظرات خميس وهي تتسلل إلى داخله، وشعر بأن من حوله من المناصرين عبارة عن أحجار شطرنج بشرية، وأراد أن يبحث عن شيء يتكئ عليه فلم يجد ألا مرارة الحسرة وهي تسري بداخله.

أراد سالم بصفته نسيب لسعيد أن يتسيد الموقف.

أليس لنا خاطر عندك يا خميس؟ الأفضل أن نغادر لأنك لا تحترم الناس ووجهاء القرية، وهل نسيت أنك فدائي ومجرم، ولا تحب أي شخص في القرية.

لقد حفظت كلام سعيد يا سالم، وأصبحت كالببغاء تردد ما تسمع، وما علاقة أني كنت فدائي بهذا الموضوع؟ لا تخلط الأمور يا سالم.

اسكت يا خميس وسوف تدفع الثمن غاليًا، لأنك لم تحترمني أنا سالم، ولم تحترم مختار القرية وكل هؤلاء الوجهاء.

علا صوت عريف مرة أخرى وردد هيه هيه، اشتاط سالم غضباً، وقال لعريف:" لولا خوفي من أن يقول الناس: ضرب مجنونًا، لضربتك على وجهك اسكت ولا تتكلم".

صمت عريف وسط هذه الجموع، وزحمة الكلام، وكأنه لا شيء، لا بواكي له إلا الحسرة وهي تشع من عيناه، فآثر الإنصراف على البقاء، وسط كومة الغضب.

يا سالم، يا مختار ،أنا أعترف، أن زوجتي تسرعت بكلامها، لكني كنت أنتظر منكم كلامًا وموقفًا، مختلف عن هذا الموقف.

شعرخميس أن الجميع لا يريدون سماعه، ولم يتمكن حتى من إبداء وجهة نظره، أوشرحها أكثر، لقد انتفض سالم في وجهه، وكأنه بركان، بحجة أن خميس ليس ندًا لسعيد، وأن سعيد من الوجهاء، ويجب أن يُسمع كلامه، وقال له:

"أنظر إلى المختار، لقد وضعته في موقف صعب، وهذا الكلام لن نسكت عليه أبداً"

رد خميس بصوت عال وقال: اسمع يا سالم، اسمع يا مختار اسمعوا جميعكم، يا أهل قرية السكة، أنا خميس ابنكم وابن القرية، كنت معكم في كل المواقف، لم أكن مجرماً في يوم من الأيام، والله أني أحبكم ولا أميز بينكم، زوجتي (أم عامر) لم تقل ما قالته، إلا بعد أن أهانتها زوجة سعيد، ووصفت خطوبتي منها أقل وجاهه، وتمت وأنا في السجن، وهذا ليس ذنبًا نحاسب عليه، وزوجتي إنسانة أيضًا، ولها مشاعر، ولا يجوز الحديث معها أمام الناس بهذا الشكل.

إذا كان له حق عندي، فأنا أيضاً زوجتي لها حق، لقد سخرت منها النساء في بيت سعيد، وكلكم يعرف ذلك.

صحيح كنت فدائي، ولاحقتني تلك التهمة، وكأنها لعنة طول السنوات السابقة، رغم أنه لا ذنب لي، أنا أعرف أن بعضكم مغلوب على أمره، لكني أكلم ضمائركم، لقد دفعت ثمن أني كنت فدائي، وأعلنت توبتي، وأعتقد أن الله تعالى قد قبلها، وأنتم لا تريدون قبول توبتي.

لقد سجنت ودفعت الثمن، وسعيد هو السبب في ذنبي وفي سجني.

لم يصدر منهم الا جملة واحدة: "عليك الاعتذار من سعيد". واكتفوا بالصمت بعد ذلك، والنظر إلى خميس، وكأنهم يفكرون بالأمر، فهم خميس أنهم يريدون أن يصلوا معه إلى طريق مسدود، عن طريق عدم الرد عليه، حتى يظهر أمام الناس أنه لا يريد الامتثال لأحكام ونظم القرية، فهم يدركون أنه من الصعب على خميس أن يعتذر وبهذه السرعة.

غادر الجميع وسط ذهول خميس واستغراب زوجته.

***

خرج الجميع من عند خميس في طريقهم إلى بيت سعيد، وفي تلك الأثناء دار بينهم حديث، بدأه سالم حيث قال: الله يستر يا مختار، نحن في موقف صعب، سعيد له حق، وخميس قد يكون له حق أيضًا، وأخشى أن يحدث خلاف بينك وبين سعيد؛ لأن خميس تكلم بكلام غريب، ونحن يا مختار، بقينا صامتين طوال حياتنا، ولا نريد أن نختمها بكلام قد يسبب لنا المشاكل مع سعيد، وخصوصًا أنت يا مختار، سوف يصبح موقفك محرجًا أمام أهل القرية، وأنت تعلم أن سعيدًا له علاقات قد تحرمك لقب مختار في

أي لحظة يريدها، فالواجب علينا أن نساير سعيد؛ ليمر وقت طويل على المشكلة، وقد تهدأ أو تحل لوحدها.

يبدو أن الخلاف بين خميس وسعيد، أكبر مما نتحدث فيه نحن.

-- صدقت يا سالم، يجب علينا أخذ وقت أطول، وقد نجد حلاً بينهم مع مرور الوقت.

شعر مختار القرية أن البساط قد يسحب من تحت قدميه في أي وقت، وأصبح في موقف صعب، فهو أمام عدة خيارات: أما أن يكون في صف سعيد، فيكسب هيبته، أو يخسرها أن وقف في صف خميس، وهناك خيار ثالث، فكر به المختار وهو: أن يعتزل مهام المختار من تلقاء نفسه، لكنه قال في نفسه: أنا حاليًا مختار القرية، وليس لي احترام عند سعيد، إلا إذا كنت في صفه، فكيف إذا اعتزلت مهام المختار، ولم أعد مختار القرية؟ ماذا سيفعل بي سعيد؟

وصل الجمع إلى بيت سعيد، وجدوه ينتظر ما يحملون إليه من نتائج ذهابهم إلى خميس.

- ما هي الأخبار يا مختار؟ ماذا قال لكم ذاك الجبان خميس؟

-- خير إن شاء الله يا سعيد، لا تقلق.

- ماذا قال لكم يا مختار؟ أريد أن أعرف حتى أتصرف معه.

لم يقل شيئًا، لكني سأبقى خلف الموضوع أنا وسالم، لتأخذ حقك وحق زوجتك منه.

كان سعيد في الأصل يخشى أن يكون خميس قد تحدث بحديث قديم، واستطاع إقناع أهل القرية بالماضي، لذلك أصر على تلك الأسئلة، فكرر نفس السؤال للمختار، ألم يقل أي شيء؟

-- لا يا سعيد، لقد دافع عن زوجته أيضًا، ووقع خلاف بسيط بينه وبين سالم.

- حسنًا يا مختار، سوف أعطيك مهلة، لكنها ليست طويلة، لأرى ما سوف يحدث.

إنكسـار القلـوب

- لقد تعبت يا نفوز، خلال هذا الأسبوع، عمل طوال اليوم، وتعب نفسي في الليل، ولم يتحدث معي أحد في موضوع سعيد، وهذا الهدوء يقلقني، بعضهم لا يرد عليّ السلام، وبعضهم لا يريدوا حتى الحديث معي لكن أعينهم تقول أشياء أخرى، تقول: أن موقفهم معي، لكنهم يخافون على أولادهم، ويعتقدون أن التعامل معي، قد يجلب لهم المزيد من المتاعب. وما يقلقني يا نفوز: أن فئة منهم غير مكترثة لشيء، هذا ما أحس به يا نفوز، لكن الواقع شيئًا أخر.

أعتقد أن أهل القرية، لا يظهرون أمامي هكذا إلا في مخيلتي، فالعديد منهم إن لم يكن جميعهم يجهل مشاكلي القديمة مع سعيد، ويعتبرون ما حصل معك ومع زوجة سعيد، أمرًا لا يستحق منهم كل هذا الاهتمام الذي ننتظره نحن.

الناس لها عذر وعذر كبير، والذي يعرف منهم لن يبوح بشيء، صدقيني يا نفوز.

-- حتى أنا يا خميس، أحيانًا لا أفهم حقيقة مشاكلك مع سعيد، ولماذا كل هذا العداء الذي لا ينتهي، صارحني يا خميس إن كنت تخفي شيئًا عني.

- لا يا نفوز، لا تتكلمي بهذا الشكل، وأريدك أن تفهمي أن سعيد، سيبقى يكرهني إلى النهاية صدقيني.

أعانك الله يا خميس لقد كان أسبوعًا مميزاً بقسوته أنا معك إلى النهاية.

- وجودك في حياتي يا نفوز، ساعدني وأشعر براحة كبيرة، وأنت جانبي، أطال عمرك فأنت ...

-- لماذا سكت يا خميس؟

- لقد كبرت يا نفوز على هذا الكلام، وأنت تعرفي الباقي.

-- آه يا خميس! رغم أني السبب في مشكلتك الأخيرة مع سعيد، لم تغضب مني أو حتى لم تعاتبني، أنت يا خميس ...

- لماذا سكتي يا نفوز؟

-- الساعة الآن التاسعة مساءً، وأنت متعب، ويجب أن تنام وترتاح.

أسمع خطوات اقدام عند الباب يا خميس، إنه ينادي؛ اعتقد أنه أبو مروان.

- آه يا نفوز أبو مروان، في هذه الساعة، ماذا يريد؟.

-- تفضل... ادخل.

- مساء الخير يا خميس، كيف حالك يا أم عامر؟

-- سأجلس هنا، لا أحتاج إلى دعوة رسمية؛ فأنا أعتبر نفسي واحداً من البيت، ولست غريباً عنكم.

- سمعت ما حدث اليوم؟

-- وماذا حدث يا أبا مروان؟

- لقد حدثت مشادة كلامية بين المختار وسعيد، مشادة من طرف واحد، سعيد يتكلم والمختار صامت يسمع، وأنت السبب يا خميس.

-- أنا السبب، ولماذا؟

- قال سعيد للمختار: " أنت كبرت وأعتقد أنك نسيت مهام المختار، لقد طلبت منك حقي من خميس، وأنت لم تفعل أي شيء، أتريد أن تعتزل مهام المختار؟ وكلام قاسٍ جداً وجهه سعيد للمختار.

-- وماذا فعل المختار؟

- لقد أصابته كحة شديدة، وسعال؛ لأن الكلام وجهه له أمام الناس، حتى أنه أغلق جهاز التلفاز في بيته.

-- لقد أصبحت بطلا يا خميس.

- أنا بطل... وكيف؟

-- كلام زوجتك لزوجة المختار، واتهامها لسعيد بأنه قتل أمه، وأنه ماكر وخداع، وأنك بطل قاتلت في معركة الكرامة، ومواقفك المشرفة مع كل أهل القرية تساعدهم وتحضر مناسباتهم، وتعمل فرش كل عريس في القرية بأقل الأسعار، يقول الناس: أنك غير ما يقوله سعيد، وجميعهم يعلمون: أن زوجة سعيد أهانت زوجتك أيضًا.

احتار خميس في كلام أبي مروان، لم يتعود أن يسمع منه الحقيقة، بل تعود على تزوير الواقع، وصبغ الحديث بعبارات من إختراعه، لكن حديث

أبي مروان هذه المرة كان له طابعًا خاصًا، وربما كان صادقاً هذه المرة، قال خميس في نفسه.

وهنا خطرت على بال خميس فكرة، مادام أبو مروان موجود، إذاً أى كلام نتحدث به الآن، سوف يصل للجميع، ويبث على كل الموجات.

-- اسمع يا أبا مروان ، أريد أن أحكي لك كيف كان سعيد

-- احكِ يا خميس، أنا أسمع.

- كل الناس في القرية، يقولون: خميس فدائي، خميس مجرم، خميس ينشر التفرقة بين الناس؛ خميس لا يحب سكان القرية، كل هذا يا أبا مروان يقال عني.

-- نعم وأكثر من ذلك يا خميس، لكن تغير الأمر بعد حديثك مع سعيد.

-- إذاً تغيرت أفكار بعض الناس عني، وما دام الأمر كذلك ،يجب أن أذهب الآن إلى سعيد في بيته.

- أتبحث عن المشاكل يا خميس؟

-- لا بل أبحث عن الحقيقة؛ ليعرفها كل أهل قرية السكة.

- سأذهب معك يا خميس وأسمع بنفسي.

المـواجـهــة

كانت ليلة من ليالي الصيف، يجلس غالبية أهل القرية خارج بيوتهم؛ طمعًا بنسمة هواء لطيفة، قد تأتي في ساعة غفلة، تفوح رائحة الكاز من مداخل البيوت، إنها الوسيلة الوحيدة، للتخلص من البعوض، وإشعال مصابيح الإنارة، وعلى عتبات المنازل تتجمع بعض النساء الطاعنات في السن، يجمعهن حديث الذكريات، حيث لا أمل لهن بمستقبل قادم.

فكان تدخين الغليون أنيسًا لبعضهن، أما شباب القرية، فكانوا يجتمعون عند الطرقات، يهرب بعضهم لتدخين سيجارة خلسة؛ خوفًا من والده، والذي يدخن جهارًا؛ لأنه رجل كبير، أو لسماع شريط كاست جديد، من مسجل محمول مع أحدهم، بينما يستلقي الرجال وكبار السن على فراشهم، منهكين من يوم عمل شاق، وقد صادف تلك الليلة... أن كان القمر بدرًا، ومن السهل تمييز أى حركة تتم في القرية، وشاهد معظمهم أبو مروان وخميس في طريقهما إلى سعيد، وكان عريف ما زال يتجول ذهابًا وإيابًا، في القرية، فما كان منه إلا الالتحاق بخميس، وهو لا يعلم إلى أين المسير؟

كان سالم والمختار، وبعض أهل القرية عند سعيد، يجتمعون في محاولة منهم، لتخفيف التوتر بين سعيد والمختار، يحاول سعيد أن يثبت للمختار، أنه تأخر كثيرًا في موضوع خميس، ولم يستطع المختار ان يأتي بأعذار مقنعة، لقد تأخر في حل الموضوع، إعتقادا منه بأن الزمن، سوف ينهي الخلاف الذي نشب بين سعيد وخميس.

أما سالم، فقد كان يقف في المنتصف، تارة مع سعيد وتارة مع المختار، لكن دون جدوى.

وعند وصول خميس بشكل مفاجئ، وغير متوقع، أعتقد الحاضرين، أن خميسًا قد جاء؛ ليقدم الإعتذار لسعيد، ويقبل رأسه ندمًا على ما حدث منه.

وكذلك سعيد اعتقد ذلك، وهيَّأ نفسه؛ ليكون محط الأنظار، وهو يوجه إلى خميس، لومًا شديداً أمام الحاضرين.

وقف خميس وأبو مروان على مدخل بيت سعيد، وكانت ساحة واسعة تستطيع الدخول إليها بسهولة لاتساع مساحة المدخل.

وكان عريف يتبعهما على استحياء، وبعض الفضوليين الذين قادهم شعورهم، بأن ذهاب خميس إلى سعيد وراءه شيء مهم، وان هنالك أمر ما سيحدث. ظهر سعيد أمام الحضور بمظهر صاحب الحق، ومظهر الإنسان القوي، وهو من الداخل، قد اهتز من رؤية خميس، وخوفه من أن يثير خميس بعض المواضيع القديمة، والتي قد تسيء إليه أمام الناس، وكله أمل أن يعتذر خميس منه، عما بدر من زوجته وينتهي الموضوع.

كانت الإنارة في بيت سعيد كافية، لتفحص وجوه الحاضرين، فجال بصر خميس بين الحضور، ولم يتفوه بكلمة واحدة، وهنا قفز سالم إلى واجهة الحديث وقال: " لقد فعلت خيرًا يا خميس، أن جئت للإعتذار عما بدر منك، ومن زوجتك تجاه سعيد.

اذهب وقبل رأس سعيد، واطلب منه أن يسامحك، ونحن بعد ذلك، نتحدث معك، ونسامحك عما بدر منك.

ساد الصمت بين الجميع، وما زال خميس يتفحص الوجوه غير مكترث لكلام سعيد، ولم تظهر عليه أي بادرة أو نية للإعتذار، وقال بصوت عال:

" يا سعيد، لم آتي إليك لأقدم الاعتذار، إنما جئت لأكشف لكل الموجودين حقيقتك ، ومن أنت بالضبط".

تفاجأ الجميع بما قاله خميس، وهنا تدخل المختار وحاول أن يمتص الموقف، وكذلك سالم ولو ظاهريًا، وفي داخلهم تمنوا أن يفعل سعيد مع خميس، ما يشفي غضبهم منه ؛ لأنه رفض وساطتهم (فشلهم أمام سعيد).

اسمعوا يا كل الموجودين، أنا خميس وجميعكم يعرفني جيداً.

وسوف أزيدكم من الشعر بيتا، خميس الفدائي، خميس المجرم، خميس أكملوا كما تريدون وأريدكم أن تقفوا مع الحق ولو مرة واحدة.

وسط ذهول الجميع، وارتفاع صوت خميس لأول مرة في بيت سعيد، أخذت أعداد الناس بالتزايد وتجمهر العشرات أمام بيت سعيد.

- يا خميس لا ترفع صوتك في بيتي، أنت غلطان في الأصل، سوف أبلغ بالشرطة عنك، وغداً سوف أذهب إلى معارفي المهمين، وسوف تسجن أو تعدم على جرائمك السابقة يا مجرم، اخفض صوتك ، أو أخرج من بيتي.

-- هيه هيه كل ما استطاع عريف، قوله وسط تلك الجموع، وهو يشير بيديه إلى سعيد، لقد فعلها عريف وأستطاع الإشارة إلى سعيد بيديه،

فما كان من سعيد إلا أن لطم عريفا على وجهه غير مكترث لجنونه، فكأنه حشرة أو صرصار، يداس كلما علا صوته، فآثر عريف الانسحاب، ولسان حاله يقول: لم أفعل شيئًا، أستحق عليه كل هذا، وخرج وهو يردد: هيه هيه.

- لن أخرج يا سعيد، حتى يعرف كل الناس من أنت؟

الآن سأقول وداعاً أيها الصمت، يا أهل القرية، زوجتي تعرضت لإهانة واضحة من زوجة سعيد أيضًا، ومع ذلك أنا أعترف أنها قد تسرعت، وتكلمت بكلام يجب ألا تقوله، وأعتقد أن نسائكم أخبرنكم بذلك، لكن سعيد يريد أكثر من ذلك، يريد أن ينتقم مني، ولا أعرف السبب! ربما يكون أحدكم يعرف وأنا لا أعرف.

لم يستطع سعيد تحمل كلام خميس، خوفًا على صورته أن تهتز أمام أهل القرية، فلم يجرؤ أحد من أهل القرية على الحديث معه بهذه الطريقة من قبل، وخاف سعيد أن يفتضح أمره، خصوصًا في أيامه السابقة، أيام النهب والسلب.

-- اخرج يا خميس من بيتي الآن، وإلا سأقتلك وارميك للكلاب يا مجرم.

انا لست مجرما يا سعيد، أنت لص ومحتال، وكل أموالك مصدرها من الحرام، من السرقة التي لا يعرف عنها أحد؛ أنت تعلم أني تركت العمل مع الفدائيين منذ البداية، وأنا لم افعل شيئا، لكن غررت بي والله على ما أقول شهيد، وأنت من جعلتني أنتمي إلى الفدائيين.

سوف أفضحك يا سعيد أمام الشرطة، و أمام الناس، أنت مجرم مجرم.

قام الحضور بإخراج خميس من بيت سعيد، والغضب والشرر يتطاير من عيون سعيد.

توقف أمام بيت سعيد وقال: يا ناس الذي يحبني ويريدني، يجب أن يقف معي الآن في وجه هذا المجرم، ونخرجه من القرية ونطرده ونرتاح منه.

من يقف معي؟

شعر سعيد بأن موقفه يكاد يكون ضعيفًا، وفي محاولة منه لمنع أي شخص من الانضمام إلى خميس قال:" من منكم سيقف مع خميس، أريد أن أسمع الآن" وكرر كلامه، ورافقه كلام تهديد، لمن سيقف مع خميس، أنه مجرم ومتستر على مجرم، وسوف يقدم للمحاكمة.

أنا سعيد معروف في كل القرية، ولي معارفي ناس كبار وكبار جدًا، سوف أبلغهم عن كل شخص منكم يريد أن يقف مع خميس.

يا ناس لا تسمعوا كلام سعيد انه يكذب، شكري ماذا جرى لك؟ أنت معي أكيد، أبو مروان، يا مختار، يا سالم، لست كما يقول لكم سعيد! ولم أسرق قمحة كادت أن تكون لكم رغيف خبز، ولم أقتل حتى نملة يا أهل قرية السكة، خلافي مع سعيد، ليس بسبب كلام زوجتي، أرجوكم افهموني! لم يسمع خميس كلمة تأييد واحدة، لكنه شعر بها فيمن حوله، شعر أنهم يريدون الوقوف معه، لكن الخوف يمنعهم، لكن هنالك بصيص أمل أشعر خميس أن أحد الحضور يمكن أن يكون في صفه، لقد سمع صوتًا قويًا، لكن شدة غضبه لم تسعفه في تمييزالأصوات، وحين هدأ قليلًا، أيقن أنه صوت عريف، وهو يقول هيه هيه.

لماذا يا أهل القرية؟ لماذا لم أسمع أصواتكم !

كانت نفوز من جملة الحضور، لكن التقاليد منعتها من المشاركة بالنقاش، وشعرت بحجم الإنكسار في قلب خميس، وحاولت مساعدته على مغادرة المكان، وسط رفضه لما يحصل.

ضحك سعيد بصوت عال، ودخلت ضحكته إلى داخل أحشاء خميس، وهو يشعر بالإنكسار.

وقال خميس بصوت بدت عليه علامات الإحباط: لم أشعر بهذا الشعور بعد هزيمة العرب في ٦٧، لم نهزم لأننا كنا جبناء، لكن الحرب لها ظروفا وأحوالها.

" يوم لك ويوم عليك"، وانتصرنا في الكرامة انتصروا معي لأنفسكم أولًا، سعيد قتل أمه يا ناس كلكم يعرف ذلك، سعيد سارق ومجرم يا أهل القرية.

لم يسمع خميس كلمة تأييد واحدة، وقال بصوت عالٍ: "أنا متأكد أنكم من الداخل، كلكم خميس، لكن صمتكم جعلكم في عيني كلكم سعيد، كلكم سعيد.

عريف المجنون أفضل منكم، لكن موقفه معي لا يساوي شيئًا.

- هيا يا نفوز، لقد ساء وضعي الصحي.

غادر خميس متكئًا على الحسرة، تمسك نفوز بيده، وسط شعوره بالهزيمة، وأنه لا بواكي له، في هذه القرية، دخل بيته وكله أسى، وحزن، وقد كسر قلبه أمام صمت أهل القرية.

- يا نفوز، لقد قلت ما يجب أن أقوله منذ سنوات، سنوات طويلة، تحملت فيها سعيد كثيرًا.

-- يا خميس، نحن في ورطة الآن، ويجب علينا أن نغادر القرية، نخاف على أنفسنا، وعلى عامر يا خميس، أنصحك أن تذهب إلى المختار وكأنك دخيل، وتطلب حمايته.

- ماذا تقولي يا نفوز، لست مجرمًا، ولم أفعل شيئًا، ساد صمتي لسنوات طويلة، وكاد أن يقتلني، وعندما تكلمت أصبح كلامي إجراما؟! أريد أن أرتاح يا نفوز، مفاصلي أصبحت تؤلمني الآن، لا أستطيع الوقوف على قدمي ،قلبي مصدوم وحالي ميؤوس منه.

-- آه يا نفوز، ماذا أفعل أمام كل هذا الجبن؟ سعيد مجرم وظالم، ولن يتركني، لقد كان يكره أبي من قبلي، حقده دفين، رفض أبي أن يزوجه أختي، وطرده لأنه ؛ كان إنسان عديم الأخلاق، وضربه عمي، وكادت أختي أن تقتل بسببه.

لقد أخفى أهلي عني موضوع علاقته بأختي، وكيف طردوه وضربوه، وما عرفت إلا متأخرًا، عندما كان الموضوع قد انتهي بزواج أختي من ابن عمي.

ماذا سيفعل بي سعيد؟ ولا أستطيع إخبار أهل القرية، أن سعيد كانت له علاقة مع أختي، لا استطيع، حتى سعيد لن يجرؤ على الحديث عن تلك الأيام؛ خوفًا من أن يقول عنه الناس: رفضوه وضربوه، حتى كل من كان يعلم من أهل القرية، لن يجرؤ على فتح ذلك الموضوع خوفًا من سعيد.

لست خائفًا منه على نفسي، أخاف عليكم، لقد انتهت حياتي، ولم يعد لها أي قيمة.

سوف يدبر لي سعيد مكيدة، أمام صمت أهل القرية، لقد انتهيت يا نفوز، لقد انتهي خميس أمام صمت الجميع، بل أمام جبنهم.

يا ليت أنهم قالوا أي شيء حتى، لو كان مثل كلام عريف.

بعـد أيـــام

يسرقه الوقت عندما تفوح رائحة القضية، فيبتعد أكثر إلى حيث الدفاتر العتيقة، يخاف، لكنه يفضل أن تكون هنالك مسافة تخفف وطأة الأشياء عندما تراوده عن نفسها، يخاف أن ينقله التفكيرإلى حيث التفاصيل المشبعة العقوق.

أراد أن يقنع نفسه بأن صورتها مازالت في الحقيبة، وأن زجاجة عطرها بجانب منديلها الأزرق، وأنها لم تظهر إلا في لوحاته القديمة، ولم تعبق نسمات ماضيه بسواها، وأن أفكاره مازالت عذراء، وأن قميصه قدّ من قبل .

حالة من الهستيريا، نقلته بعيدا إلى حيث المقعد الخلفي للحافلة، فهو لم يفتن بالبساط الأحمر يومًا من الأيام، ولم يحاول أن يشرح معاني عذرية المكان، ومفردات الافتراض، اعتذر من نفسه أخيرًا، وقرر ألا تصاب حروفه بالعقم، ونهض فتساقطت أفكاره مرة اخرى، هكذا بدت حالة خميس طوال تلك المدة، عندما خذله الجميع.

عشرون يوما وخميس ما زال ينتظر، لم يحدث أى شيء مما كان يتوقعه، تغير شكل خميس، لم يحلق ذقنه منذ تلك الحادثة، لم يزره أحد، تورمت قدمه الوحيدة، وكلما جاءت أي سيارة إلى القرية، ينتابه قلق وترقب؛ لعلها قادمة لاعتقالي، حتى نفوز لم تعد كما يرام.

- لم تخرج لعملك يا خميس منذ ما يقارب الشهر، لا يوجد لدينا مصروف أو حتى مؤونة في البيت.

-- سأقدم اعتذاري يا نفوز لوجه قرية السكة ،وأشجارها وسبخاتها، فقد أصبح وجهها حزين مثلي الآن.

أعتذر يا نفوز، عن الصمت الذي سكنني لسنوات طويلة، لقد كانت حماقة أوصلتني الى الإنهيار.

آه على حالي، فقسوة هذه الأيام، تعادل عمري كله يا نفوز، عندما يبكي الرجال، أعلمي أنه أمر عظيم، وقد بكيت مع نفسي كثيراً، لكني استغرب لماذا لم يفعل، سعيد أي شيء؟ هل خاف مني ،أم ماذا؟

عتبة الذكريات

"يرحلون ولا تبقى إلا ذكراهم، تداهمنا حين نشعر بهم بداخلنا" الكاتب.

ما زالت قرية السكة، تحتضن بين أروقتها صداقة من نوع خاص، ليس لها بداية تذكر، ربما أتت بالصدفة، أو صنعتها المواقف، وفي أغلب حالاتها نمت وتطورت على عتبات المنازل.

نساء تقطعت بهن سبل المستقبل، فلا خيار أمامهن إلا إنتظار الموت، أو المزيد من الأمراض.

أم أحمد السبعينية، خف سمعها من صراخ الحياة، وبالغت التجاعيد بالنمو على محياها، تتسلى بالبصاق من مرارة تبغ الهيشي، وتنظف غليونها باستمرار، وعلى يمينها اتكأت مرجية أم كايد، ذات الوجه الذي غلب علية الوشم (سيال) على شكل كرات صغيرة بلون أخضر، وكانت على قدر من الجمال في شبابها، ورغم أنها قاربت على الثمانين من عمرها، فما زالت تحمل بعض علامات الجمال.

أما سلوم أم طارق، ذات البشرة السمراء، فلا تتذكر أعداد أحفادها، ولها ثلاثة أولاد، وخمس بنات، وجميعهم تزوجوا وأنجبوا، وتجاوزت الخامسة والستين سنة من عمرها.

صداقة عمرها أعوام طويلة، تفوح منها ذكريات الزمن الماضي، يجتمعن غالبًا بعد صلاة العصر، ويتناوبن على الاستضافة، فكان يوم جمعة من أيام الصيف، حيث اجتمعن عند أم أحمد؛ ليواصلن حديث تكرر عشرات المرات، وفي كل مرة، ينقص أو يزيد قليلًا بحسب مزاجهن.

وفي لحظات التجلي، يرددن أغاني وتراويد، لم يعرف لها مؤلف أو ملحن، وغالباً ما يكون عريف المجنون هو بطل تلك الأغاني والتراويد، والسبب؛ لأنه غير ملفت للنظر، إذا قامت بعض الفتيات الصغيرات بالسن بتقليد العجائز في غنائهن؛ لأن اجتماعهن يضم بعض الأولاد والبنات الصغار، من الأحفاد أوالجيران، يستمتعون بما يسمعون من قصص ،تشبه ألف ليلة وليلة، وما أن يسأل الأولاد الصغار عن سبب وضع اسم عريف المجنون في معظم الأغاني، لم يحصلوا على أية إجابة، إلا الزجر والنهر.

افتتحت الجلسة، ودار خلالها حديث طويل ومتشعب، حيث ما زالت سلوم أم طارق تردد، ما علق بذاكرتها عن حرب الأيام الستة وتقول: أيام حرب الستة، (شردنا)، وكنت أحمل على ظهري ابنتي منيرة، وولدي خليل، لا يستطيعا المشي، وبقية أطفالي يمشون حولي، ودخلنا في مغارة، وقضينا فيها أسبوع، وكان معنا عائلات كثيرة، فكانت تلك الأيام لا تطاق.

ردت عليها مرجية: لا تذكرينا يا سلوم، أيام كانت صعبة، خسرنا فيها البلاد وراحت فلسطين، وخسارتي كانت أكبر خسارة.

وأخذت مرجية تتنهد وتتحسر، ووضعت يديها على رأسها وصمتت.

وهنا تدخلت أم أحمد بالحديث، وهي تنظر إلى أم طارق نظرة شفقة، وقالت لها: اصبري أنتِ إنسانة مؤمنة بِاللّٰه، وأنشدت بعض الأبيات بصوتها العذب:

اجينا بسياج الفـــــــرح بديـــــــــار أهالينـــــا

عالقـدس والخليـل ونـابلس لا رحـــــــنا ولا جينـــا

واحـــــــنا دهسـنا الحصـا والشـوك أكـل رجلينـــا

فنزلت الدموع من عيون مرجية، وقالت بصوت اعترته بحة: "لا تفتحي الجروح يا أم أحمد"، راحت الأيام وراحت (لبلاد)،أيام حرب الستة ،كانت صعبة علينا؛ صعبة على كل الناس، إن شاء الله، لن تعود مرة ثانية.

وتجهم وجه مرجية، لقد تذكرت شيئًا لم تستطع طوال تلك السنوات نسيانه، تذكرت كايد، ابنها الوحيد الذي خرجت به من الدنيا، لقد فقدته في تلك الأيام، ولم يعرف عنه شيئًا، إلا بعض الروايات التي حصلوا عليها من مصادر متعددة، ومنها: أن كايد قد استشهد في حرب الأيام الستة، في حزيران ١٩٦٧م، وبعضها يقول: أن كايد استشهد في حرب الكرامة، وبعضها يقول: فقد في أحداث أيلول، لكن النتيجة التي حصلت عليها مرجية: أن ابنها كايد لم تراه منذ عام ١٩٦٧م، وانقطعت أخباره وطوال تلك المدة وهي تبكي عليه.

وأخذت تردد بصوت مختنق بالدموع ، أبيات أبكت كل الحاضرين.

طلت البرودة و السبع ما طل يا بوز البرودة من الندى ما انبل
ودمع عيني يمه يا كايد على المنديل من فراقك عّلم
مسيك بالخير يمه يا كايد يا ابن بطني يا ريتك تسلم

مسـيك بـالخير يمـه يـا كايـد يـا حبيـب امـك وأنـت تعلـم

دهسـت الشـوك علـى فراقـك ومـا قـدرت يـا كايـد اتـألم

ولم تستطع مرجية إكمال باقي الكلمات، لقد اختنق صوتها بالبكاء، فما كان من رفيقاتها إلا شحذ عزيمتها بالصبر، رغم بكائهن.

استجابت مرجية لكلامهن، ولسان حالها يقول: يرحلون ولا تبقى إلا ذكراهم، تدهمنا حين نشعر بهم بداخلنا.

وفي تلك الأثناء، حضرت فريدة زوجة شكري الخليلي، لقد كانت سمينة بما يكفي، لجعل مشيتها تتمايل، فسلمت وجلست بمحاذاة سلوم.

- كيف حالك يا فريدة؟

-- الحمد لله، بخير، الضغط والسكر يتعباني دائمًا، وأعتقد أن هنالك شيئًا أخطر من ذلك.

- سلامتك ألف سلامة، عبارات ترددت من كل الحضور، فبعثت في نفس فريدة الأمل، والشعور بالطمأنينة.

-- قد تعبت من المشي، أريد أن أرتاح قليلًا.

نظرت أم أحمد إلى فريدة، وقالت لها: اشربي القهوة السادة، إنها من عمل يدي.

-- تسلمي يا أم أحمد، إن شاء الله دايمة.

وبعد أن ارتاحت قليلًا، نظرت إلى أم كايد حيث ما زالت الدموع ترتسم على وجهها، وقالت لها: رحم الله ابنك كايد، كايد البطل، كايد الشهيد.

تعيشي وحفظ الله لك أولادك وزوجك.

بدأت أم أحمد بمداخلة موجهة إلى فريدة، حيث سألتها عن ذكرياتها أيام الخليل كيف كانت؟

- أيام الخليل يا أم أحمد!. أيام لا تنسى، كنت شابة تلك الأيام، قبل حرب الستة، وكانت البلاد جميلة وحلوة، لكن ضاعت بعد الحرب، وخرجنا منها من مكان إلى مكان، حتى وصلنا عندكم في قرية السكة، وتحملنا التعب والسهر، وأشياء كثيرة، لا أريد تذكرها.

الله يفرجها على الجميع، وإن شاء الله مرتاحين عندنا، والله يا أم أحمد والحكي للجميع، آخرراحة، لكن لا بد من تذكر أيام الطفولة، وأيام

الشباب في الخليل، وخصوصًا السموع، قريتنا بلدنا، ودائمًا بقول في نفسي: "هل يمكن أن يأتي يوم من الأيام، وترجع البلاد؟ وقالت بصوت الإنشاد:

هــب الهــوى شــرقي وغربــي لا تفتحــوا علــيّ جــروح قلبــي

نفضت سلوم رأسها وكأنها أمام مفاجأة أو خبر صاعق وقالت: ترجع البلاد!

وبدت علامات اليأس والقنوط تظهر على وجه النسوة الحضور، ولسان الحال يقول: ترجع البلاد؟.

ردت مرجية: إذا رجعت البلاد، هل سيرجع كايد معها؟ وأنشدت:

طلــت البــرودة و الســبع مــا طــل يــا بــوز البــرودة من النـدى مـا انبـل

ودخلت في نوبة بكاء ثانية، لولا تدخل سلوم في محاولة منها لتغيير سير الكلام، فقالت: ما هي أخر أخبار الخلاف بين خميس وسعيد؟

أجابت فريدة: لو حضرت أم عامر، زوجة خميس لتجلس معنا، لعرفنا منها كل الأخبار، لكنها لم تحضر، ولها مدة طويلة غائبة عّنا.

قفزت إحدى الفتيات (حفيدة سلوم من ابنها) وتدعى أمينة لواجهة الحديث كمتطفلة، وقالت: يقولون يا جدة، خميس كان فدائيا، ولا نفهم ما معنى فدائي؟!

أجابتها جدتها سلوم بلغة الزجر، طالبة منها عدم التدخل في الحديث مرة أخرى، لأنه حديث كبار، وهي ما زالت صغيرة على هذا الكلام.

ظهرت علامات الدهشة والغضب على وجوه النساء، مطالبات سلوم بكف حفيدتها عن الحديث، خصوصًا عن الفدائيين، وهن ينظرن حولهن، خوفًا من سماع لفظ فدائيين قد نطق به في الجلسة، حتى أن أم كايد مرجية، أرادت الإنصراف متحججة بأن لها حاجة تريد أن تقضيها، بينما سارعت أم أحمد في تعبئة غليونها، لإشعاله بحجة تفريغ همومها.

رحلــة العــودة

بعد تطور الخلاف بين خميس وسعيد، والذي أتخذ شكل المواجهة الصريحة بينهما، أصبحت قرية السكة ذات هيبة كبيرة في عالم النميمة، فمرت أشهر عديدة نُسجت خلالها قصص وحكايات عن خلاف خميس وسعيد.

أصبحت القرية مقسومة إلى ثلاثة أقسام، قسم أظهر بطولات سعيد، وأنه ترفع عن عقاب خميس، أوأنه ما زال يفكر باختيار طريقة مناسبة؛ لإيقاع أشد أنواع الأذى بخميس.

وقسم آخر، يتكلمون بتثاقل كبير، لا ينظرون إلى خميس على أنه شرير، أو إلى سعيد على أنه بطل وقوي وصاحب سلطة، فألامر لا يعنيهم بشيء، كل ما يهتمون به هو: تأمين رغيف الخبر لأطفالهم، وثمن باكيت الدخان.

بقي قسم من أهل القرية قلوبهم مع خميس، ويتمنون أن ينتصر على سعيد، وأعوانه في يوم من الأيام، لكن أصواتهم لم تتعد حدود أسماعهم.

ما من أحد يحفل بعريف البائس المجنون بعرفهم، لم يكن له موقف مع أي قسم من أقسام النميمة في القرية، فالجميع يعتبرونه لا شيء عندما توزن المواقف، واعتبروه بمثابة توابل وبهارات، لإضافة نكهة معينة إلى حديثهم، وغالبا ما يختمون به أمسياتهم بعدما يفرغون حمولة النميمة بعد كل لقاء.

أشهر كاملة مرت، وما زال خميس يختبر فرضياته عن عدم قيام سعيد بأي شيء ضده، أصبح خميس مجرد شخص مثقل بالوهم، يحدث نفسه دائماً:

"ما قمت به تجاه سعيد ،لم يكن عليّ القيام به" لم أستفد شيئًا ، ولا حتى القرية استفادت أي شيء، ربما تصرفي قد خلق حيرة في عقول الناس، وقد ينتج عنه مواقف مختلفة، لم أسمع كلمة تأييد واحدة.

صحيح أني رأيتها في عيون البعض منهم، لكنهم لن يناصروني أبداً، يجلسون في الحسرة فرادى وبصمت و لا أعرف بماذا يفكرون؟ أحس بأني شخص عاجز عن إعالة القرية بأي شيء إيجابي، طوال تلك السنوات لم أكلم

الناس عن قصتي وحقيقتي، وتركتهم عرضة للأوهام، وتفسير ما جرى معي حسب أهوائهم.

ولم أساهم في إقناع الناس، أن ما حدث في الماضي، كان شيئاً عارضًا، جاء في ساعة عدم إتزان، وعدم التفكير بالعواقب بشكل جدي.

لم أقل لهم أن ما جرى كان وبكل بساطة يمكن أن يحدث بأى مكان.

لقد غُرر بي، ولست وحدي، فمعي الكثير من الناس، منهم من دفع الثمن، ومنهم ما زال أولاده يدفعون الثمن.

وكان بالإمكان لولا وجود أشخاص مثل سعيد، أن يحدث عكس ما أعيشه الآن، كنت مع الفدائيين وتركتهم ودفعنا جميعنا الثمن.

لكن صمتي بعد ذلك استمر طويلا، ولم أقل لهم: أن ما حدث كان عارضًا، لا بد منه، أصُّبنا به وتماثلنا للشفاء، لكن رائحته ما زالت تزكم أنوف فئة ضالة، ويا للأسف الكل دفع الثمن.

سنوات طويلة، وأنا قابع في محراب صمتي، أخاف من لا شيء، أخاف من نشرة الأخبار، وأخيراً عرفت أن كل القرية تخاف مثل خوفي.

حتى أني لم أستطع بصمتي وصبري، أن أخلص زوجتي نفوز من أحساس كاد أن يقتلني لو باحت به، كادت أن تقول لشكري الخليلي :أنكم لاجئون عندنا.

لو كانت قالتها، لن أستطيع حينها أن أسكت عن عقابها، وربما طلقتها في تلك الساعة، رغم حبي لها، ولن أتخلي عن مقولتي:

"الأردن بلدي، وفلسطين قضيتي، ولا أريد أن أداوي الناس وأنا مريض"

لن يستطع سعيد أن يفعل لي شيئًا؛ لأن كل كلامه كذب وافتراء، لقد صنع لنفسه هالة على حسابي وحساب البسطاء من أهل القرية، لقد استمر عبر تلك السنوات يزور التاريخ؛ ليفتك بي، وفي الحقيقة كل ما أراده هو: الانتقام من أبي؛ لأنه رفض أن يزوجه أختي، أو ربما هنالك شيء لا أعرفه.

- لقد أصبحت تهذي يا خميس.

-- نعم أصبحتِ أهذي.

يا ترى من أين جاء عريف؟

وماذا يدور في ذهنه؟

وهل يعرف مثل بقية الناس أني كنت فدائيا؟

ماذا جرى لي؟

أتراني أهذي من جديد، أم أني على مشارف الجنون؟

الـهــروب إلى العـاصفــة

وبدون مقدمات قرر خميس: أن يذهب في جولة تخرجه من حالة التوهان، وربما تعيد إليه شيئاً من عقله وتفكيره، هكذا قال لنفسه:

" ربما أذهب إلى عَمان أو الزرقاء، المهم أن أغادر قرية السكة"

كانت الساعة حوالي العاشرة صباحًا، وقد حل فصل الشتاء في قرية السكة، وكانت نفوز جالسة، وما زالت تحس بشيء من الذنب تجاه خميس، نظر إليها خميس وقال لها: سأذهب في جولة يا نفوز.

-- إلى أين يا خميس؟

- خارج القرية، وربما لن أعود إلا بعد عدة أيام.

-- هي جولة يا خميس أم هروب؟

أم أنت غضبان مني يا خميس، لغاية الآن ؟

-- لا عليك يا نفوز، هي جولة ورحلة في نفس الوقت؛ أزور فيها بعض ما بقي لي من أصدقاء في عَمان أو الزرقاء.

-- ومتى تريد الذهاب؟

- الآن يا نفوز.

لقد ذهب موعد باص القرية الآن.

لا عليك سوف أتدبر أمري.

طريق السلامة، لكن سامحني يا خميس، ربما تعود ولن تجدني على قيد الحياة.

-- لماذا هذا التشاؤم؟ وهذا البكاء كله من أجلي؟

- لا أنا لا أبكي، لكن دموعي غلبتني.

-- لا تبكي يا نفوز، كنت أبكي من خلال عينيك، أنت من حمل همي، وصبرت معي وصبرت على حالي، وأنت الآن تبكي وحدك.

-- ما لي أراك تبكي أنت أيضًا، أنت رجل ولا يليق البكاء بالرجال، اذهب الآن، ورافقتك السلامة، لقد خبئت معي عشرة دنانير، خذ معك خمسة منها؛ لتعينك في مشوار الطريق، ولا تنس معطفك؛ فالجو بارد في عَمان.

-- سلمتِ يا نفوز، لن أغيب طويلا، انتبهي لنفسك وانتبهي لعامر.

خرج خميس من بيته، يجر همومه، متوجها إلى الطريق العام، وهو يحدث نفسه:

"لا يمكن أن أجد سيارة تقلني مباشرة إلى عَمان،وأكيد الجو بارد في عَمان، وعليّ أن اتحمل ذلك"

ربما أجد سيارة محملة بالخضار، ذاهبة إلى السوق المركزي.

نحن في الشتاء وهذا موسم الزراعة في قريتنا.

اقتربت الساعة من الثانية عشرة ظهرًا، وبعد مدة من الانتظار، أبصر سيارة قادمة من بعيد، تنهد وشعر ببصيص أمل.

إنها سيارة فيصل، قال في نفسه:

اقترب أكثر من الشارع ، وهو يعرج من رجلة الصناعية.

حاول ألا يتكئ عليها كثيراً، وكانت فرحته عظيمة عندما توقفت السيارة بجانبه.

- خميس، إلى أين؟ هيا اركب.

لم يكن التردد من صالحه؛ لأن المواصلات شبه معدومة في هذا الوقت.

سأركب حتى لو كانت سيارة فيصل، موقفه في القرية مع سعيد ليس مهمًا كثيراً، المهم أن أغادر القرية، هكذا قال في نفسه.

وكان هدف فيصل من مغادرة القرية، عمل صيانة لسيارته المتهالكة، ويا لها من صدفة، بعد أن عرف فيصل أن خميس ذاهب إلى عَمان أيضاً.

- تعال، ورافقني إذاً.

أم تراك ما زلت تحمل بعض العتب مني؛ لأني لم أكن معك في موقفك مع سعيد؟

إني معذور يا خميس، ولو عرفت السبب، ستلتمس لي العذر.

صعد إلى السيارة بسرعة، واستقبله فيصل بابتسامته المعهودة، فهو صاحب ابتسامة دائمة، وصاحب نكتة وطرفة مكنته من امتلاك قلوب الجميع، لقد كان من المقربين من خميس في السابق، فهو زميل سابق لكنه لم يكن من رفقاء السلاح، بل كان يذهب إلى معسكرات الجيش، ليأخذ الخبز اليابس، وعمره يقارب عمر خميس، لكن أسنانه تساقطت، ولا يستطيع لفظ

بعض الحروف بشكلها الصحيح، لم يحلق ذقنه منذ فترة، ويدخن بشراهة، ويلبس معطفا أسودا، تساقطت أزرته.

- كيف حالك يا خميس؟ كانت أيامك جميلة! لا تؤاخذني يا خميس، لقد تساقطت أسناني، ولم أعد فيصل صاحب النكتة المفاجئة، أصبحت أفضل الصمت على الكلام.

-- إلى عَمان طريقك يا فيصل مباشرة، أم تراك متأخرأو تريد الذهاب إلى مكان آخر؟

- نعم يا خميس إلى عَمان مباشرة، لكننا بحاجة إلى الصبر؛ لأن السيارة بحاجة إلى صيانة، سوف أسير على مهل، وقد نستغرق وقتاً طويلًا.

-- لا عليك يا فيصل، المهم أن نصل إلى عَمان في النهاية.

- إن شاء الله يا خميس، أهلا وسهلا، نرجو من الله التسهيل.

كيف حالك يا خميس؟ لم تحاول زيارتي أبداً، لقد كنا أصدقاء ورفقاء يا رجل، صحيح أني لم أدخل الجيش كجندي، لكني كنت أزوركم في المعسكر، وأخذ بعض الخبز اليابس، أتذكر يا خميس؟

ذكرتني بما مضي من زمن يا فيصل ، فالأيام أخذت كل ذاكرتي.

ما أجمل تلك الأيام ! لولا وجود سعيد فيها.

-- سعيد يا فيصل؟ أينما أذهب سعيد سعيد، سعيد ليته ما يسعد.

- نعم يا خميس، فسعيد لا يستحق حتى أن يذكر، لقد تسبب في سجني سنة كاملة، أنسيت يا خميس؟

-- سجنك أنت أيضاً يا فيصل؟

- نعم ونصب عليّ ، أتريد سيجارة يا خميس؟

-- أنا لا أدخن يا فيصل، أما زلت تدخن لغاية الآن ؟

- نعم لقد أتعبني التدخين، وأهلك صحتي.

تكلم معي أفضل لك من قتل نفسك بهذه السجائر، أكيد أنها من محلات شكري الخليلي؛ لأنها ليست دخان هيشي.

- إنها جولد ستار كج سايز، يا خميس.

-- أصبحت تتكلم لغات يا فيصل.

- لا خميس أنه اسم الدخان.

-- لا علينا دخن كما تريد، فأنت حر في صحتك.

-- أي صحة يا خميس، قد هرمت كما ترى والحمد لله .

من المؤكد أن الإنسان لا يستطيع أن يبقى بصحته على الدوام، كنا شباب أقوياء، وانظر كيف أصبحنا؟

- الشباب يا خميس، أتذكر كيف قضينا أيام الشباب؟

-- أنا قضيت شبابي، في الحرب والسجن.

- وأنا قضيت شبابي يا خميس، في النهب والسلب، والسجن أيضاً.

-- أحكِ يا فيصل أراك مخنوقاً، أرح عن قلبك.

- كلما تذكرت تلك الأيام، تمنيت لو أني لم أكن موجوداً في هذه الحياة، لكن لعنة الله على سعيد.

-- سعيد من جديد ،يا فيصل!

- نعم أنه شيطان، دمر شبابي، وعقد لساني فيما تبقى لي من عمر.

حديـث الـذكـريـات

شعرت نفوز بشيء من الذنب، لتركها خميس يغادر القرية بهذا الشكل.، جلست وكاد الحزن أن يقتلها، لقد أصبحت خبيرة ومحترفة في مجال تلقي الصدمات، لم تجد متسعاً من الوقت للتفكير المنظم، لقد عانت في تلك اللحظات من عشوائية المزاج، ساعة تتذكر أنها سببًا لمشكلة خميس مع سعيد، وسببًا لعزوف بعض أهل القرية عن خميس، وساعة أخرى تفكر بنوعية الإنتقام الذي يمكن أن يقوم به سعيد، وساعة أخرى لا تفكر بأي شيء، وفي تلك الأثناء سمعت صوتًا على الباب، فعرفت أنها فريدة زوجة شكري الخليلي؛ وأثناء ذهابها لفتح الباب، أخذت تفكر بسبب قدوم فريدة إليها، وصممت على أن تكون حذرة في كل كلمة تقولها.

- أهلا يا فريدة تفضلي.

-- كيف حالك يا أم عامر، ما زلت غاضبة مني؟

- لا يا فريدة، أهلا وسهلًا.

-- سمعت انك يا أم عامر، تحبين شرب القرفة، وخصوصًا في أيام الشتاء، فقلت في نفسي: سأذهب وأشرب القرفة معك.

- أهلا بك، وحالا سأعد لكِ إبريقا من القرفة.

دخلت أم عامر إلى المطبخ المتواضع، وبدأت بإعداد إبريق القرفة، وفي نفسها استغراب من طبيعة كلام فريدة الهادئ، والذي ينم عن رغبة في المصالحة، فقالت في نفسها: لا باس إن أرادت فتح صفحة جديدة معي.

بعد أن فرغت نفوز من إعداد القرفة، أحضرتها وجلست مرحبة بفريدة.

اسمعي يا أم عامر، أنا جئت إليكِ، وكلي ندم على ما صدر مني من كلام في خطوبة ابن سعيد، لا أعرف كيف تحدثت هكذا؟!

أنا إنسانة مريضة، ويمكن في أيامي الأخيرة، ولا أحب أن أموت، وأنتِ غاضبة مني أرجوك، سامحيني.

-- مالك تبكين يا أخت فريدة، وسلامتك من المرض، مالك؟

-- أنا يا أم عامر، عندي مرض ومرضي كبير، عندي مرض لا سبيل إلى الشفاء منه، سرطان ... يا نفوز.

- سلامتك ألف سلامة، لم أكن أعرف ذلك، الله هو الشافي لا تقلقلي.

والكلام الذي قلته في خطوبة ابن سعيد، كان لحظة حماس مني، فقط نسيت نفسي، ولم أعرف كيف تكلمت هكذا؟ كان من المفروض ألا أتكلم، لأني لست من قريتكم وغريبة عنكم، لكني أحبك والله يا أم عامر.

-- لا يا أختي، لست غريبة عنا، لقد أصبحت واحدة منا، وأنا أيضًا تكلمت عن زوجك، وعن بضاعته وأنها غالية الثمن.

يعني نحن في حالة تعادل، كلانا تكلم، ويشهد الله أني تألمت على ما حصل، زوجك خميس بطل وحارب وجاهد من أجل فلسطين، أريد أن أعتذر له أيضًا، حتى زوجي شكري غضب مني، ولولا وضعي الصحي ومعرفته بحقيقة مرضي، لتصرف معي تصرفًا آخرًا.

-- لا تقلقي يا فريدة، لسنا غاضبين منكم، وزوجي خميس ذهب إلى عَمان لزيارة أصدقائه، وأنا في البيت لوحدي.

- أين القرفة؟ أريدها ساخنة يا أم عامر، لقد ارتحت من أنك لست غاضبة مني.

-- اشربي القرفة يا فريدة.

- قولي يا فريدة الفلاحة.

-- مالك تضحكين يا نفوز؟ أرأيت كيف تصبيحين جميلة عندما تضحكين،؟ وكأنك صبية.

- أنا صبية؟ لقد جبرتِ خاطري، وأنتِ كمان يا فريدة، جميلة، واسمك جميل يا فلاحة.

بـقـايـــا الأيـــام

استمر الحديث سجالًا بين خميس، وفيصل أثناء الذهاب إلى عَمان.

- كنا يا خميس أثناء حرب الكرامة، وقبلها وبعدها، نعيش أنا وسعيد، على النهب والسلب، وقد وسوس لي سعيد ،وكأنه شيطان رجيم في أحد الأيام، وكانت كلماته فيها من الإغراء ما جعلتني أقول له: شبيك لبيك.

سرقنا عدداً من البيوت، وفتشنا في جيوب الجثث، ونهبنا المحلات التجارية، وفي النهاية قبض عليّ ولم يقبض عليه، سجنت أنا ولم يفعلوا له شيئاً، لقد جعلني أسرق ثم أبلغ عني الشرطة، لا يوجد أحقر منه إطلاقًا.

-- لقد جعلت ذاكرتي تشتعل من جديد يا فيصل.

- احكِ يا خميس، فضفض عن نفسك أنت أيضاً.

-- لماذا لم تتكلم مثلي يا فيصل، وتواجه سعيد؟

- أنا أواجه سعيد يا خميس، أتراك فقدت عقلك؟

سعيد إنسان جبار، وله معارف، يستطيع أن يفعل ما يريده، وأنا عندي أولاد، ولا حول لي ولا قوة، وكما ترى يا خميس.. لقد أصبحت مثل

أوراق العنب، ستسقط في الخريف لا محالة، وسعيد هو خريف كل واحد منا يا خميس.

-- صحيح أن كل إنسان طيب بداخله إنسان شرير، وكل إنسان شرير بداخله إنسان طيب، أنت يا خميس كنت إنسانا شريرًا، وتحولت بقدرة عجيبة إلى إنسان طيب، وأنا كذلك، لكن بعد فوات الأوان.

- أعرف أن معدنك لا يصدأ، لكني لم أكن شريراً بمعنى الكلمة يا فيصل.

-- أنت يا فيصل كابرت على نفسك، وتحملت أشياءً كثيرة؛ فصمتك هو السبب، لم تستطع أن تجمع أموالًا مثل سعيد، دخلت عالم الشر فقيرا،ً وخرجت منه فقيراً، لم تفعل مثل سعيد رغم أن مهنتك ومهنته كانت واحدة.

- كان سعيد يأخذ كل الأموال التي نسرقها يا خميس، على أساس أن يخفيها لفترة ثم نتقاسمها، لكنه غدر بي، ولم يعطني شيئاً يذكر، وكان يهددني إن تكلمت أن يقتلني، وتم القبض عليّ، واعترفت بأن كل حوادث النهب والسرقة كنت وحدي أفعلها.

-- لماذا يا فيصل، لم تعترف على سعيد، لكنت أرحتنا منه منذ زمن طويل؟

- لقد أوهمني بأني لو اعترفت بكل الجرائم وحدي، ولم أذكر اسمه في التحقيق، أن يقدم لي مكافأة كبيرة بعد خروجي من السجن، لكنه غدر بي، ولم أأخذ منه إلا التهديد أن أنا تكلمت.

تستحق أكثر من ذلك يا فيصل، أعذرني يا أخي فأنا في موقف لا أحسد عليه.

لا عليك يا خميس فأنا أستحق أكثر من ذلك.

تكلم يا خميس فالطريق طويل وحديثك لن يضرك الآن شيئا على العكس ربما ترتاح وأنت تفضفض عن قلبك.

من أين سأبدأ يا فيصل؟ أرى أن كل طرق الحديث تؤدي إلى سعيد.

ما عليك يا خميس سعيد سعيد، فقد يسفر حديثنا عنه دعوة مخلصة، عل الله يستجيب لنا، ونحن في هذا السفر.

ذكـريـات الســموع

بعد أن دخلت الجيش ١٩٦٦م، وبعد عام كامل نقلت إلى منطقة الخليل ،قرية السموع في فلسطين مع القوات الأردنية التي حاربت اليهود، وقبل حرب ٦٧ لم يكن المشهد العام في فلسطين مطمئناً، فكان الصراع العربي الإسرائيلي على أشده، وقبل اندلاع حرب عام ١٩٦٧م، كونت علاقة صداقة حميمه مع أصدقاء أعزاء رحمهم الله، علي عبد الحافظ، وعمر قاسم، لن يغيب عن بالي علي عبدالحافظ، إنه صاحب نخوة، ومواقفه مشرفة، وابتسامته لا تفارق محياه.

دخل الجيش قبلي بسنة كاملة، وكان موجوداً قبلي أنا وعمر قاسم في السموع، وكان يعرف المكان والتضاريس جيداً، جمعتنا الصدفة في سكنة واحدة، ولا أعرف هل كان حظًا جيداً أم سيئًا ،عندما اجتمع ثلاثتنا في تلك الأيام.

تنهد خميس، وكان مختنقا أثناء حديثه، ففهم فيصل أنه يريد أن يقول شيئا مهمًا، احكِ يا خميس، لا تكتم في قلبك.

تذكرت سؤال عمر قاسم لي: ماذا تتمنى؟ وأنت مقبل على عملية عسكرية، قد تكون في أي وقت من الآن؟ حاولت ألا أجيبه، فأنا لا أعلم شعوري بالضبط! وطلبت منه أن يعد لنا الشاي بنفسه، فقد كان ماهراً في ذلك، وبعد أقل من دقيقة، دوى صوت انفجارعنيف بالقرب منا، ويالا هول المفاجأة، فقد كشف لنا الانفجارعن سعيد الملعون، وهو يستمع إلى حديثنا خلسة، وأصابه الفزع من صوت الإنفجار، وسقط أرضا أمامنا من شدة الفزع، ولم نهتم له كثيراً فقد كان الموقف أكبر من سعيد، فقمنا بسرعة للرد على صوت النيران، لكن الهدوء خيم من جديد على المكان؟ وبسرعة كبيرة.

كان لدي حدس رغم صغر سني، بأن سعيد يخفي شيئا عنا، واكتشفنا بعد ذلك أنه سرق كل الأموال التي كانت معنا، وكان الموقف أكبر من أن نفكر بالسرقة في ذلك الوقت.

وبعد هدوء الموقف، قلت لزميلي عمرقاسم: مالي أراك في حالة فرح وبكاء، هذا اليوم ؟

نظر إليَّ، وردد بصوته: "يا زميل بعد شهرين من الآن ،يمكن أن أرجع إلى إربد".

- إربد لماذا؟

-- فيها أهلي وأمي ، كيف حالها بعد مرور سنة على وفاة والدي؟

- رحمة الله عليه، لكني أراك تبكي يا صاحبي.

-- ليس بكاء بمعنى الكلمة.

من الصباح، وأنت تضحك وتبكي يا عمر!

-- والله صدقت، لا أعرف ماذا يجري أشعر بحالة غريبة.

- على الله يا صديقي.

-- هي كما تقول يا خميس.

- أتشرب الشاي؟

-- شاي أهذا وقته يا خميس؟ كن المناوبة الليلة، والدوام يا خميس، إنه واجب.

سأعمل لك الشاي، بعد أن أعود من مناوبة الساعة الثانية عشر صباحًا، إن شاء الله، سأعمل لك أفضل شاي ستشربه في حياتك.

أجهز نفسي للمناوبة، وداعاً يا زميل.

اندهشت من ضمة زميلي عمر لي، ومن بكائه وفرحه بنفس الوقت، وأعطاني سيجارة وقال لي:

"احتفظ بها، أو دخنها، لا أريدها".

وبعد ذهاب زميلي إلى المناوبة، جلست أحاول إشعال السيجارة، وقد اعترتني الذكريات وشدني الحنين، تذكرت أمي وأبي وزوجتي الحالية أم عامر، لقد كانت بداية الحب في تلك الأيام.

ولم تفلح محاولاتي في إشعال السيجارة بين أصابعي، بسبب بلل أصاب علبة الكبريت، وقلت في نفسي:

"أنا في الأصل لا أدخن، سأحتفظ بها وأعطيها لمن أراد"

وأنا على هذه الحالة، وقد شارفت الساعة الثانية عشرة إلا ربع ليلًا، جاءه زميلي علي عبدالحافظ، وقال لي: انهض يا عسكري، وضحكت، وقد اعتدت على مداعبات زميلي علي، لكنها عسكرية، وعلي أقدم مني في الخدمة، وقلت: حاضر، ودار بيننا حديث، ما زلت أتذكره.

- أنهض إلى أين؟

-- دورك أن تستلم المناوبة، عن زميلك وصديقك عمر قاسم.

الوقت مبكراً ، ودوري في السادسة صباحا، ليس الآن.

- أعرف يا صديقي، لكن زميلك احمد خليل، مريض هذه الليلة، ولا يستطيع المناوبة، عليك المناوبة مكانه.

-- حاضر رقبتي سدادة، لكني على موعد مع عمر قاسم لنشرب الشاي.

- الشاي ليس الآن يا خميس.

انطلقت بعد أن لبست اللباس العسكري، وتجهزت بالكامل للوظيفة، وفي الثانية عشرة إلا خمس دقائق وصلت إلى عمر قاسم، وأعطيته سر الليل فعرفنا بعضنا البعض، وتصافحنا بشدة ،واستغربت من ذلك.

-- خميس أين احمد خليل ؟

- مريض، وأنا مكانه.

-- والشاي يا خميس؟

- في وقت أخر يا صديقي.

وما كان من عمر قاسم، إلا وهجم علىَّ في عناق سريع جداً.

واستغربت ذلك، وقلت في نفسي: "لعل عمر قاسم في نفسه شيء لا أعرفه".

مضى عمر قاسم إلى حيث الخيمة، وبعد خمس دقائق سمعت دوى إنفجار كبير.

ذهلت من صوت الإنفجار، وأنا لا أعلم أن عمر قاسم قد استشهد، وبعد هدوء الوضع، جاء زميلي علي ، وقال لي: " العمر إلك، لقد استشهد عمر قاسم، في الإنفجارالأخير".

-- والشاي؟

- يشربه في الجنة يا صديقي.

وتعانقنا طويلًا، وكان البكاء سيداً اللموقف، لقد أصبحت عروقي، تفرز أشياءً، لاأعرفها من شدة الحزن، وشعرت أن الأيام المقبلة مليئة بالمفاجآت، وبقيت طوال الليل أبكي على زميلي، وأنا لا أصدق ما حصل، لقد داهمني الحزن، وكأنه لص محترف، سرق مني أجمل الأشياء وأثمنها.

في تلك اللحظات ... لم يستطع خميس أن يمنع نفسه من البكاء، حتى فيصل كاد أن يبكي، لولا انه تعذر بأن عينه تؤلمه من دخول حشرة فيها.

- أكمل يا خميس، حديثك شوقني لأيامك، وبطولاتك الرائعة، رحم الله زميلك عمر قاسم.

أصر الحزن على القيام بالواجب، بدل عني في تلك الأيام يا فيصل، هم وحزن وخوف، من المجهول، كنت صغيراً على تلك الأحداث، ومضي شهر على استشهاد عمر قاسم، ولم أستطع نسيانه، لكن شدة العمليات العسكرية، واقتراب الموت بين اللحظة والأخرى، ساهم في انشغالي عن التفكير بزميلي عمر قاسم، وقويت العلاقة أكثر مع زميله الآخر علي.

والأمر المحير: أن سعيد لم يظهر منذ تلك الفترة، فقد اختفى، وكان الحديث الدائرعنه، أنه فعل شيئا ما، وهرب من المكان، إضافة إلى السرقة، أو ربما قتل، وبعضهم قال: أنه عاد إلى الأردن، رغم سيئاته لأنه كان طاهياً ماهراً، فقد كان يعمل طاهياً في نفس الكتيبة معنا، وحضر معنا من الزرقاء.

أعرف يا خميس أن سعيدًا كان طاهيًا، فتلك الأيام هي بداية معرفتي بسعيد.

عندما كنا نجلس لشرب الشاي دائماً، أتذكر عمر قاسم يا فيصل، ولكن كثرة عدد الشهداء بين زملاءنا، طغت على الموقف، كل يوم عدد من

الشهداء، وقصف في كل الإتجاهات، وأحسست بأني على موعد فراق جديد، عندما رأيت زميلي علي عبدالحافظ، يطيل الدعاء في الصلاة ذات يوم، وكان يبكي، فبكيت معه، وتقدم مني وعانقني وقال لي:

"أريد منك وعدًا، أن لا تبك يا خميس إذا مت، وحصلت على الشهادة، فكر في نفسك فقط، وتكملة المشوار".

عندها شعرت باقتراب أجل صديقي علي، وفي نفس اليوم ركب على سيارة من نوع جيب ولز، وبعد تحرك السيارة بدقائق، تعرضت المنطقة إلى قصف جوي مركّز، وجاء خبر استشهاد علي.

يا لها من لحظات! لسعتني عندما استشهد علي، إنها رفقة السلاح، بكيت بكاءً يقطع القلوب، رغم وصية علي لي بعدم البكاء، لكنها نفس بشرية، ووفاء من نوع خاص، لقد كان أخًا لي.

الـتـراجـــع

ساد صمت رهيب في السيارة، لقد رحل كل من فيصل وخميس إلى عالم آخر، قد سكن الحزن في أعماق قلبيهما في تلك اللحظات.

- يا خميس، أين ذهبت يا صديقي؟ أكمل قبل أن تنزل من السيارة، لغاية لم أعرف أين تريد النزول؟

-- مجمع الجنوب أوالوحدات.

-- حاضر يا خميس، خمس دقائق، ونصل إن شاء الله، لم نشعر بمسافة الطريق.

- أكمل يا خميس، وأشعر بأن الجو بارد، نحن في نهاية تشرين.

كان الموت يقترب مني أكثر فأكثر، واشتدت العمليات العسكرية، وازداد عدد الشهداء والإصابات بين الجنود، وفي تلك الفترة بقيت وحيداً، أنام لوحدي ولم أفكر بصديق جديد؛ خوفا من أن أفجع به من جديد، وبعدها بشهر واحد عدنا إلى الأردن.

وصلنا إلى الوحدات، مع السلامة يا خميس، ودر بالك على حالك.

-- انظر يا فيصل، أتوقع ثمة مشكلة في الطريق العام، سأبقى معك من جديد، فأنا أخاف من المشاكل.

بعد كل تلك البطولات! تخاف من مجرد مشكلة شبان ألا تراهم؟ اسمع يا خميس ماذا يقولون؟

-- إني أسمع يا فيصل، وأتوقع أنهم جمهور يشجع من بعيد، هتافات رياضية.

-- نعم إنها هتافات رياضية، لكنهم منقسمون.

كل مجموعة تشجع فريقها يا خميس.

-- لكن يا فيصل، هذا ليس ملعباً، أنه طريق سيارات.

- أتوقع يا خميس، أنهم إما ذاهبون، أو قادمون من مباراة.

-- أتسمع ما يقولون يا فيصل؟ كل قسم منهم يقول عبارات مختلفة.

- لا عليك يا خميس، لقد تعودنا على هذا الكلام.

-- لن أبيت في عَمان يا فيصل، بل سأبقي معك حتى تنهي إصلاح سيارتك، وأعود معك إلى القرية.

-- لماذا يا خميس؟ ماذا جرى لك؟

- لقد غيرت رأيي يا فيصل، أريد أن أعود إلى القرية، وأختبئ داخل ثمار الدوم، ولا يشعر بغيابي أحد، رغم أني أكون موجوداً فيها، فهناك رغم وجود سعيد، أجد نفسي.

انتهى حديثي يا فيصل، يكفي ما أسمعه من عبارات، اذهب إلى الميكانيكي ،واطلب منه يسرع، وأعدك أني لن أتحدث هذا المساء عن أي شي، وربما أبقى نائما حتى نصل إلى القرية.

-- مالك يا خميس، كل ساعة بحال؟ أجننت يا رجل؟

- لم أجن يا فيصل، لقد أصبح للجنون راحة عظيمة، ألا ترى حال عريف المجنون؟ أعتقد أنه مرتاح جداً، لعدم إدراكه ما يجري حوله، أريد أن أرتاح فقط، لقد تعبت ذاكرتي، أنا لست متعباً فقط يا فيصل، أنا شقي وتعيس إلى أبعد حد قد يصله أي إنسان.

لم يكن عطل سيارة فيصل كبيراً، بشكل يستدعي الدخول في مفاوضات مع الميكانيكي، العملية برمتها بواجي وريداتير فقط، وقبل الغروب تم الانتهاء من أعمال الصيانة، وانتهت العملية برمتها، عند أول

محطة محروقات، وتم تعبئة السيارة بالوقود، وتزويد الإطارات بالهواء اللازم.

داهم الظلام المكان، وأصبحت أنوار السيارات تتقاطع وتتوازي حسب اتجاه سيرها، وزادت برودة الطقس، بشكل لافت.

لم ندخل عَمان يا خميس، أكملنا ما أردنا من عمل ونحن على الأطراف عَمان، الوحدات ثم وادي الرمم، والآن ما تزال تريد العودة معي إلى القرية أم غيرت رأيك؟

-- سأعود معك يا فيصل، فلا حاجة لي بزيارة أي صديق الآن، أعتقد أنهم قد تغيروا أيضاً، فلن أجد منهم إلا بقايا، لا أريد أن اصطدم بصديق أصبح مشلول، وآخر طريح الفراش، وربما أجد بعضهم يعاني من عقوق أولاده، يكفيني ما أصابني، أريد أن أعود إلى قرية السكة، فربما أجد شيئاً قد تغير خلال هذا اليوم.

أشعر أني متعب جداً يا فيصل، وقد أنام معك في الطريق فلا تعتب عليَّ.

-- ولكن علينا أن نأكل أي شيء، أمامي مطعم سأتوقف لنأكل يا خميس.

- لا يوجد مشكلة نحن بحاجة إلى الأكل يا فيصل، والحساب عندي أنا، ولا تجادلني في ذلك.

-- حاضر يا خميس، أنت تدفع الحساب، وأنا أعدك أننا قبل الفجر إن شاء الله سنكون في القرية، نم وارتح يا صديقي، فالشتاء ليله طويل، ولا تحمل هم سهري، فأنا مدمن على السهر، ولي معه صولات وجولات، لا تقلق.

حُـــلم

وصل خميس إلى القرية بعد صلاة الفجر بقليل، دخل خميس إلى بيته، فوجد زوجته نفوز ما زالت نائمة، لم يرد إزعاجها، لكنه أراد إيقاظها لصلاة الفجر، وقبل أن يفعل استيقظت مفزوعة، فأبصرت خميس واقفًا بالقرب منها، فعرفته بسرعة، وسألها عن سبب قيامها من النوم بهذا الشكل.

- فقالت: لا شيء الحمد لله على سلامتك، وصلت؟

-- الآن وصلت، ولم أرغب في إيقاظك، لولا خوفي ضياع وقت الصلاة عليك، لكنك استيقظت لوحدك، وبهذا الشكل، مالك يا نفوز؟

-- لا شيء يا خميس، إنه كابوس، ولا تسألني عنه، فلم اعد أتذكره .

-- ألا تتذكرين منه شيئًا؟

- سأعد لك الشاي والإفطار، بعدما أصلي وتكون أنت قد استبدلت ملابسك.

-- كما تريدين يا نفوز.

- الحمد لله على سلامتك يا خميس، لقد رجعت بسرعة، قلت بأنك سوف تغيب، ماذا حصل؟

-- لا شيء يا نفوز، اشتقت إليك وللقرية فقط.

- بهذه السرعة؟!

- نعم يا نفوز ،هذا كل ما جرى، ما هو حلمك ألا تتذكرين منه شيئًا؟ لقد استيقظت مفزوعةً جدا.

-- الحمد لله يا خميس، إنه كان حلمًا، لقد رايتك تريد قتلي يا خميس، ومعك أسلحة مختلفة، هذا كل ما أتذكره.

-- أقتلك يا نفوز ما عاذ الله؟! الحمد لله أنه كان حلمًا،وأسأل الله أن يسامحني.

- على ماذا؟

-- على أشياء كثيرة.

- لا تنكد على نفسك يا خميس، أنت إنسان طيب ولم تؤذي أحد.

-- ما زلنا نخاف حتى من الأحلام، أسأله أن يستجيب دعائك الدائم لي يا نفوز، وأسأل الله أن يسامحني على كل ما فعلت، رغم أن كل ما فعلته فيما مضي، لم أكن اقصده.

-- اشرب الشاي يا خميس، ألا تزال غاضب مني؟ فغضبك يكون صامتًا يا خميس.

- لا يا نفوز، أشهد الله أني لست غاضبًا منك.

أيقظي عامر؛ ليشرب معنا الشاي؟

-- حاضر يا خميس، لقد افتقدناك بالمدة التي غبت بها.

- لم أستفد شيئًا من مشواري، رحت عن ذاكرتي قليلاً وأنا أتكلم مع فيصل، هذا كل ما حصل، وأعتذر منك يا نفوز.

-- على ماذا يا خميس؟

- لقد كان محل الحلويات مغلقًا، أحببت أن أشتري لك الهريسة التي تحبينها.

-- لا عليك، ورجوعك أجمل من الهريسة يا خميس.

- أريد أن أنام، وأرتاح ، لقد أتعبني المشوار؛ فصحتي لم تعد كما كانت، كم أتمنى يا نفوز، أن يكون نومي مثل نوم أهل الكهف.

لقـاء الـثـلاثــة

كل العائلات السعيدة متشابهة، لكن تعاسة كل عائلة من نوع مختلف.

(ليوتولستوي)

انقضى عام كامل، ولم يحدث أي شيء مما كان يتوقعه الجميع، وعام آخر تغيرت فيه بعض أحوال القرية، ومرت الأيام تلوالأيام، وكأن خميس قد نام بالفعل نومة أهل الكهف، لكن القرية ما زالت تعيش بذاكرتين، حملت إحداهما ذنبًا، وحملت الأخرى عقابًا. لكن العقاب لم يتناسب مع طبيعة الجرم، فتارة يكون مغلظًا، وتارة أقل من المطلوب، لم تستطع القرية مغادرة حلمها بشكل حقيقي، وهي تقترب من مغادرة عقد الثمانينيات من القرن الماض، فبقيت تحت رحمة الأمنيات.

شعر معظم سكان القرية، طوال تلك الفترة بأن هنالك شيئا ناقصًا، سعيد لم يفعل لخميس شيئًا، لم يعاقبه، انقرضت تلك الفئة التي كانت تناصر خميس؛ لأنهم في الأصل كانوا صامتين، فاستمر صمتهم للأبد، ومن كان في صف سعيد، فرقتهم الأيام، ولم يعد سعيد مطمحًا في الوصول إلى الوجاهة الاجتماعية.

اختل توازن الأمور، ولم يعد سعيد ذلك الشخص المخيف للجميع، كشفت الأيام أن سعيد قد عاش طوال تلك السنوات، واكتسب هالة هو نفسه، قد لا يعرف سر استمرارها.

مرض وأصيب بالشلل، فتحول إلى إنسان عاجز، ومدعاة للشفقة.

***

- انظر يا خميس من جاء إلينا؟

-- من يا نفوز؟

- أنه فلاح السكران، وعريف المجنون.

-- من تنتظرين أن يأتي إلينا يا نفوز؟ أحمد الله أن بقي من يأتي إلينا.

- انظر إليهم كيف يمشون؟ لقد تغير كل شيء، حتى منظر من تعودنا عليهم؟ عريف يجر بعضه بعضا، وفلاح أصبح سكراناً بطبيعته، حتى لو لم يشرب الخمر.

سمعت أنه انقطع عنها منذ سنوات، لكنه ما زال فلاح السكران في نظر الناس.

لا تعجبي يا نفوز، فالكثير من أهل القرية لم يدركوا مفهوم قد كنا، فمن الله علينا.

صحيح أن فلاح لم يدخل المسجد لغاية الآن، لكنه انقطع عن الشرب، ونأمل أن يهديه الله، ويصلي قبل أن يصلى عليه، هذا أن وجد من يصلي عليه في الأصل.

وصل عريف وفلاح إلى بيت خميس، يتكئ كل واحد منهم على الآخر،

تفضل يا فلاح ساعد عريف، أنا لا أستطيع مساعدة أحد، أنت أعرف بوضعي الصحي.

كيف حالك يا خميس؟ لقد صادفت عريف، ولا أعرف له إتجاهاً معينًا ولا حتى أنا، كنا نسير عبثًا، وكلنا أمل أن نجد من يرحب بنا، لقد جفت حقولنا، ولم نعد نساوي شيئاً، نحن في الأصل لا نساوي شيئا في هذه القرية البائسة.

- لا بأس يا عريف، الحمد لله على كل حال.

-- أسمعت يا خميس، أن فيصل قد مات.

- نعم سمعت وحضرت جنازته، لقد بكيت عليه من أعماقي، لكن وضعي الصحي، لم يسمح لي بالبقاء في عزائه، لقد تعبت من هذه الدنيا.

-- لا عليك يا خميس، كلنا سوف نموت، رحم الله فيصل، وسامحه عن كل ما فعل.

- رحمه الله لقد عاش في هذه الدنيا، وغادرها بسرعة، وما فعل معك فيصل؟

-- لا شيء يا خميس، رحمه الله على كل حال، وأني والله أسامحه إذا كان السماح من مثلي مهم، لكن لا ادري ماذا أقول؟

- تكلم يا رجل، أو استرح قليلا؛ لتأخذ نفسك من تعب السير.

-- أراحك الله يا خميس، لست متعبًا، لكني إنسان تعيس ومن يومي، وأعتقد أني سابقي هكذا.

- منذ زمن قديم، وأنا متعب، وأحس بأني لا شيء، وأيام كنت شابًا، وفي أول حادثة سرقة قمت بها برفقة فيصل، وجد رحمه الله زجاجة خمر في إحدى المحلات، وكانت من ضمن الأشياء التي سرقها، وقد أخفاها عن سعيد، وأعطاني إياها، رحمه الله، لم يشرب الخمر في حياته، لكنه جعلني

من تلك الساعة سكيراً، فكانت تلك المرة الأولى والتي أشرب فيها الخمر، ليته أعطاها لسعيد، لكان هوالآن مكاني، يقولون يا خميس:أن نذكر أفضل شيء عن الميت.

-- أتقصد أذكروا محاسن موتاكم؟

- هي مثل ما تقول.

ويقولون أيضا: أن سعيد مريض، ومشلول ولا يستطيع الحركة، أسمعت عنه شيئاً يا خميس؟

-- نعم سمعت، ولا أتمنى له إلا الشفاء.

- أنت كبير يا خميس، وإنسان فاضل، ولا تقابل السيئة بالسيئة.

-- أنا أعرف حقيقة سعيد،أكثر منك يا خميس.

- هي أيام يا فلاح ومضت، ولم يعد لسعيد الآن أهمية تذكر.

-- الشهرالذي ليس لك فيه شيء، لا تعد أيامه يا خميس، ونحن أتعبنا أنفسنا، ونحن نعد الشهور التي ليس لنا فيها شيء.

- كل هذا يصدر منك يا فلاح.

-- أتقصد فلاح السكران؟

- اعذرني يا فلاح، لقد خانني التعبير.

-- لاعليك يا خميس، فأنا فلاح السكران، فلاح أيام زمان، فعندما كنت أسكر، أتذكر عائلة رمزي التي قُتلت، ولا نعرف من قتلهم ؟

- لقد كنت أقيم بالقرب منهم أحيانًا، وأتعمد أن أبيع الخضار بمنطقة البقعة، حتى يستمر تواصلي معهم، وكنت على وشك أن أتزوج ابنتهم أميرة، لكنهم قتلوا عندما أرادوا العودة، أنهم من أريحا، وجاءوا إلى مخيم البقعة، ولا أعرف من قتلهم؟! أتذكر أنهم قتلوا عند النهر(نهرالشريعة يا خميس)، لقد أصيبوا بالرصاص جميعهم، رمزي وزوجته وابنه محمد.

-- مالك تبكي يا فلاح، أعجز لسانك أن ينطق اسم أميرة؟

وأميرة قتلت أيضًا يا خميس، وماتت ومات حبي معها، ولم نعرف من أطلق عليهم الرصاص؟

- أسكت يا فلاح، ولا تقلب عليّ المواجع، رحمهم الله.

كان سعيد عبارة عن مرض يا خميس، أصاب الجبناء، ولم يكن موجوداً إلا في نفوس الجبناء، ونحن منهم.

-- أرجوك يا فلاح، غير الموضوع أفضل من إثارة الذكريات المؤلمة، لقد ذهبت الأيام وذهب معها كل حاقد، والأيام سوف توحد الهموم، فكلنا أصحاب هم واحد، ورحم الله أميرة وأهلها، لم أتوقع أنك بهذا التفكير يا فلاح، وعندك كل هذه المشاعر المختلفة.

- آه يا خميس!. الجميع لا يتوقع مني إلا أن أظهر قارعًا للطبل، أو راقصًا أو فلاح السكران.

-- خميس، وعريف، وفلاح، متناقضات تجتمع في بعض الأمسيات، تجمعهم صداقة الوقت الضائع، لكن هموم القرية ما زالت كثلاثتهم.

خميس الفدائي، وعريف المجنون، وفلاح السكران، لقد شكل هؤلاء باكورة هموم القرية قبل سنوات مضت.

وما زال عريف يكبر، بينما تناقصت أعداد المعتقدين أنه: جاسوس أو شخص خطير، لكن فلاح ما زال في نظرهم فلاح السكران، فلم يعد مطلبا مهما في ليالِ القرية الملاح، ولم يعد صوت فلاح إلا موضة قديمة قد عفا عليها الزمن.

وكذلك خميس، لقد أسرعت الأيام في تغيير ملامح ضحكته المفقودة منذ زمن، حتى نفسه لم يعد يتذكرها.

- أتذكر يا فلاح أيام زمان، أيام كنا نعيش في هذا العالم؟

-- ما زلنا نعيش يا خميس، ولكنا في الوقت الضائع، صوتي تغير من كثرة الأمراض، وخف بصري، ولم أعد أحفل بأي اهتمام، لقد أصبحت محط سخرية من الجميع، لم أُصلِ في حياتي يا خميس، ولكني أعرف الله في قلبي.

-- أمامك فرصة يا فلاح أن تصلي، وتتوب إلى الله، أن الله تواب رحيم.

- لم أشعر أني مسلم يا خميس، إلا في فترات محدودة، لم يهتم بنا أحد في هذه القرية، حتى شيخ الجامع ينفر مني، وقد سمعته في أحد الأيام يستعيذ بالله عندما رآني، ليته فتح قلبه لي، ليته أرشدني.

- أخاف يا خميس، أن مت ألا يصلي عليَّ أحد.

-- لا تبكِ يا فلاح، أن الله غفور رحيم.

- لقد أسرفت على نفسي يا خميس، وهذا عريف، إنه أفضل مني عند الجميع، وحتى عند الله سيبقى أفضل مني، أنك تكابر، وتكذب عليّ يا خميس، أنا لا شيء .

-- مصيبتك يا خميس، ومشكلتك في هذه الحياة، أبسط مني بكثير، همك الوحيد: أنك كنت فدائيا، وتعتقد أنه مرض قد أصابك، لن تشفى منه، إنك واهم يا خميس، أيام زمان ذهبت، وانقضت ولم يعد يتذكرها إلا القليل من الناس(جيلنا كله مات يا خميس)، حتى هذا عريف لا خوف منه، أنه بدون ذاكرة في الأصل.

وبإحساسه الفطري، فهم عريف أنه محوراً للحديث الدائر بين خميس وفلاح، نهض يدًا واحدة هي التي بقيت تتحرك منه، وبثقل كبير نطق لسانه هيه هيه، ولم يستطع أن ينطق سلام سلام.

تمــدد الـذاكــرة

مرت الأيام مسرعةً، عندما كانت قرية السكة تقترب من مغادرة حقبة عقد الثمانينيات، من القرن الماضي. تغيرت أشياء مكانية، ساهمت في تبديل مكان القرية إلى الميمنة، بعد أن كانت نهاية القطيع.

صحيح أنها لم تبلغ مرتبة حادي العيس، لكنها حاولت أن تكون.

مات العديد من رفقاء الحكاية، فريدة الفلاحة زوجة شكري الخليلي، ماتت بالسرطان، لكن موتها لم يترك فراغاً في القرية، كذلك فيصل لم يفتقده إلا أولاده وزوجته، ومن نجا منهم من الموت وقف على مشارف عتبات الانتظار.

انتهت صداقة عتبات المنازل، ماتت كل المشاركات في تلك الأمسيات، أم كايد، وسلوم أم طارق، وكذلك أم أحمد.

فكان خميس وعريف وفلاح، يجتمعون في كل مساء تقريبا في بيت خميس، تجلدهم الذكريات، ويتباكون على ماضيهم، حتى عريف أدرك ذلك بفطرته، وأنه على مشارف النهاية.

لم يتوقف الأمر بعريف عند الجنون فقط، لقد أصبح يستعيد جزءً من عقله، لقد شلت يده، وأصبح عاجزاً عن رفعها، ولم يعد مظهره يدل على أنه يريد قذف الحجارة؛ فأصبح الاعتقاد العام عند من لا يدركون حقيقة مرضه، أنه توقف عن إثارة الشغب بتنازله رغما عنه عن التلويح بيديه، فاكتسب نوعا من الاطمئنان لمتابعيه.

فلاح السكران كما جاز لهم أن ينادونه، لقد التصقت به تهمة الاسم طوال حياته، بقي يعيش بسكره رغم أنه انقطع عن الشرب، لقداحتفظ بلقب السكران، وحافظ عليه رغما عنه، لم يصل رغم معرفته بتقصيره، وكان أخر عهد القرية به، وهو يقول: أميرة ماتت، وكنت أحبها، أميرة قتلت، وكنت أحبها، أميرة اغتيلت، وما زلت أحبها... أريد أن أدفن بجانب قبرها ،عل حبها يشفع لي! لماذا ذهبتِ يا أميرة، وتركتني كل هذا الوقت؟

حتى صورتك لم تعد ذاكرتي قادرة على استرجاعها، لماذا قتلوك يا أميرة؟ وما هو ذنبك؟ ومن هم الذين قتلوك؟

لقد حفظت القرية عن ظهر قلب ما كان يقوله فلاح السكران، عن حبه لأميرة.

وهو يردد تلك الكلمات، حان وقت صلاة العشاء، وهم جلوس عند خميس يشربون الشاي، فلاح وخميس وعريف المجنون.

فقال خميس: هيا يا فلاح، أريدك أن تصل معي العشاء، لكن فلاح رفض وقال:" سوف أصلي عندما يريد الله، باب الله مفتوح للجميع في أي وقت"

ولم يصل فلاح السكران تلك الليلة، وفي الصباح أفاقت القرية على خبر نعي فلاح السكران.

البدايــة من جديـد

تفضل يا مختار لم أرك من مدة طويلة، خيرا إن شاء، الله لماذا كل هذا الغياب؟

خير يا سالم، كما ترى أصبحت أمشي بصعوبة بالغة، وقواي لا تساعدني، أحببت أن آتي إليك؛ علك ترافقني لزيارة سعيد، منذ أيام لم أزره، لقد أصبح سعيد مدعاة للشفقة بعدما كان القوة لله وحده، ونحن كما ترى يا سالم لسنا بأفضل حال من سعيد، ونريد زيارة شخص آخر يا سالم.

- من هو؟

-- خميس.

- خميس! قد انقطعت أخباره أيضًا، ويقولون: أنه مريض، و بعد موت فلاح، لم يبق لديه صديق، إلا عريف المجنون.

- لا أدري يا مختار، لماذا انقطع أهل القرية عن تبادل الزيارات فيما بينهم. أتذكر يا مختار أيام كنت تعرف كل أخبار القرية، المواليد والوفيات وكل حالات الطلاق؟

.-- لقد تغير كل شيء، والشخص الوحيد الذي لم يتغير هو التاريخ.

-- التاريخ كيف يا سالم؟ لقد تغير التاريخ كثيرًا، ولم نعد نتذكر منه إلا ما أردنا أن نتذكر فقط، انتظر يا سالم، أراك تنوي الدخول في موضوع، قد تغيب الشمس ولا ينتهي الحديث فيه.

- لم أعد كما كنت في الماضي يا مختار، أصبحت أعاني من شح الكلام، ولا استطيع أن أتحدث إلا لدقائق فقط، بعد ما كنت أعزف ألحان الكلام، رحم الله أيام زمان.

-- أتريد أن أضع لك العطر يا مختار، فالعطر هو صديقي الوحيد الذي رافقني لغاية الآن، أرى وجهك تغير يا مختار.

- لم أتغير يا سالم، لكني أحببت من داخلي، أن تسهب بحديثك طويلًا، فأنا صرفت النظر عن زيارة سعيد.

-- لماذا؟

- أتعرف يا سالم، لقد ظلمنا سعيد، أنا وأنت وظلمنا خميس أيضًا، وظلمنا القرية بأكملها.

-- كيف يا رجل ظلمنا الاثنين، وظلمنا القرية؟

- نعم عندما كنا نقف في صف سعيد، كنا منافقين، وكنا عاجزين، وها هو الآن طريح الفراش، لن نستطيع أن نقدم له شيئًا، لا شيء يدوم يا سالم.

طوال تلك السنوات، ونحن ندور في فلك سعيد، وكنا نعرف أن بعض حقوق العباد ضاعت بسببنا نحن، ظلمنا خميس، ولم نقف معه في يوم من الأيام ولم نسمع منه كما يجب، ولم نقدم نصيحة واحدة إلى سعيد، ولم نقل له أنك ظالم في أي يوم من الأيام.

-- صدقت يا مختار، حتى عريف لم نعطه أي اهتمام، وفلاح وغيره الكثير، لكنهم هم السبب، لقد كانوا ضعفاء، ولم نرَ منهم مقاومة تذكر، إلا مواجهة خميس ذات مرة مع سعيد؛ لكنها لم تغني؛ من جوع.

انقضي العمر، ونحن نقول: خميس فدائي، وكان مجرمًا، ونحن لا نعرف شيئًا، وسعيد قوى، وله معارف ولم نرى من معارفه أي أحد، لقد خدعتنا الأيام، وفرقتنا الأيام، نحن أبناء قرية واحدة، نشرب من نفس الماء،وطعامنا متشابه تقريبًا، لكننا مختلفون، كل منا يفكر بطرق مختلفة، خميس كان له عالمه الخاص، ولم نستطع أن نعرف ما أخفاه عنا طوال تلك المدة، وكنا نخاف من سعيد، بل نخاف على مصالحنا، فاستمرت تفرقتنا

بسبب تلك المصالح، لقد خدعنا أنفسنا يا سالم، وخدعنا القرية كلها سنوات، ونحن نتكلم بكلام ليس له أي قيمه، ولم يحفل بأي اهتمام إلا في أنفسنا نحن.

سوف أغادر يا سالم، ولا أريد زيارة أحد، ولا أريد حتى أن اشرب الشاي، لكني أريد منك شيئا واحدا يا سالم.

-- ما هو مختار ؟

- أريدك هذه المرة أن تضع لي الكثير من العطر، علها تتغير رائحة أيامي السابقة، وأعيش برائحة جديدة ما بقي لي من عمر.

-- الآن ... تطلب العطر يا مختار! أين كنت سابقًا؟ كنت أعرض عليكم العطر دائمًا، لكنكم أعتبرتم حديثي إضاعة للوقت(ثرثار) هكذا كنت أحس وأشعر.

لم تسمعوني كما يجب، ربما كان لدىَّ شيئًا مفيدًا، قد تلتقطونه من داخل كلامي الكثير، لكنكم لم تعطوني فرصة، رغم كثرة كلامي.

ويـدور الـزمـان

لم تسلم عائلة خميس من حقبة تغيرات أحدثها الزمن، لقد كبر عامر ابن خميس، وأصبح المعيل الوحيد للأسرة، مطيعًا لوالديه، مدرًا للدخل بما حفظه من صنعة والده، لقد حصل على اسم جديد، ولم يكن مختار القرية سببه "عامر النداف"، يخيط الفرش للبيوت بمهارة فائقة، لكنه لم يستطع أن يجد خيطاً مناسبا لجروح والده، فظل ينزف حرقة من أيام الخوالي، ويعاني أمراضا مزمنة أرهقته كثيرًا.

- لقد كبرنا يا نفوز.

-- كبرنا يا خميس، وكبرت معنا الهموم، لكنها لم تنضج بعد ليتغير طعمها، عرفناها بمرارة الأيام، وما زالت تنزف علقماً.

لم أعد نفوز كما كنت، لقد أصبحت اتعب حتى من الجلوس.

طوال تلك السنوات، وأنا أنتظر مصيبة قادمة، ولا أعرف هل أعتبر كل ما مر بنا جزء منها؟ أم أننا عشناها يا خميس، بكامل تفاصيلها؟

- أين المنديل الأزرق، يا نفوز؟

-- أي منديل يا خميس، لقد أصبحت أنسى، أتقصد المنديل أيام زمان؟ منذ سنوات لم أره عن قرب، رغم أني أراه في معظم الأيام.

- أتذكرين عندما جئتِ لزيارتي في السجن ؟

-- ما زلت تتذكر السجن؟ لم يعد لتلك الذكرى قيمة إلا عندي وعندك، فقط.

- لم ينتقم مني سعيد، على عكس ما كان الجميع يعتقد ذلك.

-- أنس يا خميس، أنس لقد مرت الأيام.

صمت خميس، عندما أحس بأن الأيام قد مرت بالفعل، وجالت في خاطره أفكار كثيرة، وأخذ يكلم نفسه:

"لم ينتقم مني سعيد، حتى ابنه ممدوح لم يوجه اهتمامه ناحيتي، لقد أصبح منافسا قويًا لزعامة القرية، فهو الوريث المدلل، أنا أعرف الأسباب".

سعيد في الأصل، لم يكن له وجود إلا في نفسي أنا، صمتي من شجع سعيد على ذلك، لقد كان جبانًا داخل نفسه، لكنه ساد في نفوس الجميع بخدعه المحكمة، وخبرته في الدسائس والمكائد، وأصبح يحسب له حسابًا.

لقد كان مثل الشيطان، له أعوان ينشر الفساد، وقد جندهم؛ لإثارة الفتن بين أهل القرية، وتعهد هو وأعوانه على نشر الأفكار الهدامة .

-- مالك يا خميس، تقول كلاماً غريباُ أنت مريض، أومالك؟.

- لايا نفوز، عرفت الآن أن سبب الحكاية برمتها؛ لأني كنت موجودًا في تلك الأيام.

-- يكفي يا خميس، أنت مريض وبحاجة للراحة.

-- لا يا نفوز، أنا الآن في أفضل حال، سعيد من جاء بلون جديد للحكاية، ولطخها بالسواد.

-- الله لا يوفق سعيد، يا خميس.

- أريتِ ما حدث؟ لو أني كنت أعرف أن فلاحا سيموت في تلك الليلة، لكنت توسلت إليه، بل أجبرته على صلاة العشاء، لكن الله يهدي من يريد.

-- رحمه الله، لقد فعلت ما كان عليك، لكن الهداية من، الله ونرجو الله تعالى أن يغفر له.

رحلــة الجينــات

لم يكن سعيد أفضل حالا من الجميع، لقد أصبح مدعاة للشفقة، يجلس على كرسي متحرك، لقد خف بريقه بعد أن أصيب بالشلل، قل جمهوره وأصبح استعراضه أمام المدرجات، بدون حضور يذكر.

لقد تحول الجمهور الفتي، إلى تشجيع فريق أخر، وهو ابنه ممدوح، فكبر ممدوح، وهو يحاول أن يكون بمكانة والده في القرية، فأصبح هو ذلك التلميذ الذي فاق أستاذه، عندما تمرد على والده، ولم يعد ابنه المدلل.

لقد أرتفع صوته على والده، في أكثر من موقف، أنت مريض ومشلول، لا تستطيع، وسعيد يتجرع مرالحسرات، لقد شرب من نفس النبع، الذي أورد أمه عليه، فكلما نهره ولده، رفع يديه إلى السماء، لا رغبة في الدعاء، وإنزال الغضب عل ابنه، بل ليقول: أنك حكيم يا الله، لقد شربت من نفس الإناء، وهذا غضب أمي ظهر عليّ الآن.

ما زالت الجينات تتردد هنا وهناك، وتظهر في كل أرجاء القرية، علي ابن المختار يجهز نفسه؛ ليكون مختارا بعد والده، والتنافس الخفي مع

ممدوح، سعيد بدأ يظهر، والسعال المتكرر، هو ذاته، يكرره علي كلما شعر بضعف موقفه، في بعض القضايا.

حفظ كلمات والده التي تقال في المناسبات، وهو على أهبة الاستعداد لإطلاقها في أي وقت مناسب.

وبعد عدة أشهر مات سعيد، وأصبح ممدوح سعيد زعيما للقرية، وكذلك علي ابن المختار أصبح زعيما لكن في الجانب الآخر، تارة يتقاربون، وتارة يختلفون، فأصبحت ثقافة الاختلاف طبعا جديداً في القرية، فكبرت قرية السكة، من الضروري... أن تتعدد الزعامات لوجود عدد كبير من الأنصار للطرفين، حتى مروان أصبح يلتقط أخبارالقرية، ويذيعها في كل الاتجاهات، بل أصبح له فنون وطقوس، عند رواية أي حكاية، لكن مكانته في تزوير الحقائق، لم تكن كوالده، فقد تغيرت المفاهيم، وانكشفت حقيقة مهمة لدي الجميع، بأن الكذب حباله قصيرة.

لم تعد القرية عذراء، لقد تعلمت أبجدية الكلام، ونطقت حروفها الأولى، وبدأت تسير على قدميها، بما استقبلته من مدنية وحضارة، لكنها لم تعرف من أطلق عليها اسمها؟!

ولم يعد مختار القرية، محتكراً لتوزيع الأسماء والألقاب؛ فأصبحت الشوارع تحمل أسماء لبعضهم، حتى أن الوجهاء اجتمعوا عدة مرات، رغبة منهم في تغييراسم القرية، من قرية السكة، ذاك الاسم القديم البالي، إلى اسم جديد، لكنهم لم يتفقوا على اسم جديد، وما زال الموضوع محور نقاش وجدل بيزنطي.

سرعان ما انقرضت طائفة كبار السن، والتي كانت تعتقد أن السكن خارج بيوت الشعر، ضرباً من الجنون، فأصبح السكن في البيوت الحديثة، مطليا للاستقرار، ونوع من أنواع الوجاهة الاجتماعية.

كبرت محلات شكري الخليلي، وذاع صيتها وجلبت جيرانا من التجار، لم يقلوا أهمية عن شكري، بل أقوى منه اقتصادياً.

أصبحت أشجار الطلح والسدر والعشير، مهددة بالانقراض، فأقيمت لها محمية لحفظها والاهتمام بما تبقى منها، وانتشرت حدائق الورد في جنباتها، ولم تعد الحياة مجرد أمنيات.

لكن النقص في سرد الحقيقة، ما زال موجوداً، لقد ظهرت براءة المختار من تهمة إحباط أي محاولة للنهوض بالفهم.

فأصبح الكثير منهم يعرفون الحقيقة، ولم يعد جذور الحكاية كما كانت من قبل، لقد كبرت القضية، وأصبحت أكبر من الأيام والساعات، لكن مفهوم أنا وأخوي على ابن عمي... و أنا و وأخوي وابن عمي على الغريب ما زال يعيش في أذهان الكثير منهم.

تغير مفهوم النظر إلى ابنة العم، ابنة الشرق للغرب وابنة الغرب للشرق، ولم تعد ابنة العم إلا مجرد شيء قد يسبب الأمراض الوراثية.

تطورت الأمور في مشاهدة التلفاز، فلم يعد الأمر مقتصراً على مشاهدة أغنية لأم كلثوم؛ أو نشرة أخبار الثامنة، ولم تعد المدارس مجرد مكان لقضاء الوقت، فتخرج العشرات من المدارس والجامعات، حتى أن بعضهم أصيب بداء البطالة.

الـذاكـرة الأخـيرة

الجميع عاش بذاكرتين في حكاية قرية السكة، وسطور الحكاية القديمة، ربما تغير تفكير الجميع، وأصبح لهم ذاكرة قوية، تستطيع أن تدور في أرجاء المكان، لكن الواقع لم يسعف لم أحلام خميس، فعاش طوال تلك السنوات بذاكرتين مختلفتين، امتطت أحداهما صهوة خياله، وبقيت الأخرى لتعايش الواقع.

لقد حمل خميس جثة الابتسامة على شفتيه سنوات طويلة، وعندما أراد أن يعمل لها حفل توقيع أمام من ثقلت عليهم كآبته، رحلت ذاكرته بعيداً، ولم يعد للثواني التي سمنت في ذاكرته قيمة تذكر! وبقي الحنين يحترق فوق مقعده الباكي، فغادرت معه ذاكرة ، وبقيت أخرى.

وأستمر الحلم في نفس خميس، لكنه كان وحيداً من حيث تجسيم المكان ببعده الثلاثي؛ فذهب الجزء الذي أدمن على شم أصابع السجان.

لم يقدم خميس نفسه كما يجب، لم يكن شجاعًا بشكل استثنائي ليفعل كل ذلك، ربما أن كل تلك الأشياء قد حدثت له في زمن ما، كان يكره الوداع

لكنه فعله وودعهم، رغم أنه لا يعرفهم حق المعرفة، فقط مجرد صدفة جمعته بهم.

أرهق نفسه، وهو يرغب بلقائهم مرة أخرى، رغم ذلك مازال صديقًا لذاكرته القديمة، ما زال ظله الثاني يرافقه، وكأي إنسان يعيش حياته بجميع فصولها، وجد أن للخوف ثمن، وللقاء ثمن، لكن ذاكرته حولت تلك الأمور إلى شظايا، تناثرت هنا وهناك، وفشل في التخلص منها مهما فعل.

نعم لقد تأخر فنجان قهوته، من المثول أمام خميس هذا المساء، لقد أصبح التأخير في إحضار فنجان القهوة سمة بارزة في كل مساء.

لم يعد ذلك ذنبًا أوجرمًا، ولم يعد مدعاة تفكير في العقاب أوالثواب، فأشار برأسه، أنها تأخرت هذا المساء، يا نفوز يا أم عامر، وقبل أن ينادي السادسة إذ بقهوته الخالية من السكر، قد مثلت أمامه، هدأت نفسه قليلاً عندما تأمل فنجان إعادة النشاط، لم يعد هنالك نشاط يستحضر.

لم يعد هنالك كسر جمود في تأخر القهوة، لم تعد نفوز كما كانت من قبل، وأصبح خميس ينسى فنجان القهوة أمامه ساعات حتى يتلفه الوقت.

-- لا تغضب مني يا خميس، لقد أصبحت بلا سكر أشبه هذا الفنجان.

- لا يا نفوز لم اشرب القهوة بالسكر طوال حياتي، وطوال تلك الفترة اعتبرتك أنت السكر.

اعتبرت المستحيل والحلم وجهان لعملة واحدة، وقد أكون قد اخطأت، فربما يوجد غول على هذه الأرض، وربما يوجد حلم قد تحقق.

ومرة أخرى حَضَر أَيْلُول من خلال ذاكرة خميس، أَرَاد أَنْ يستقبله كما يجب، لكنه مر من أمامه مسرعًا؛ لسعته ذاكرته عندما شاهده هكذا، وتحول حضوره إلَى كومة جنون.

أَدرك أَنه مَا عاد بِإمكانه، أنْ يَكونَ حاضرًا بكامل قواه العقلية مرة أخرى. حزن عليه كَثيرًا عندَما راه مثقَلًا بجنُونه، يتشاجر مَعَ نَفسه، مَع الطيورِ الْمهاجرة، مَع أَوراق الشجر، مَع الغيوم الَّتِي تستعد لنطق كلماتها الْأُولى.

تَمنى أَنْ يجد لَه دواءً يخفّف هَجْمَه الأحزان عَلَيه، حاول أَنْ يتكلم معه بأي طريقة كانت، لَكِنَّه لَم يلتفت إليه، وَلَم يهتم لأمره، عِنْدَهَا اكتفى بِشمّ رائحة الذاكرة مِنْ خلاله.

ومضت الأيام، وما زال خميس يجلس أحيانًا على كرسيه المعتاد عند كل مساء، كرسي الاعتراف، بعد أن أنهكه المرض، متكئ على نفوز تارة، وعلى الأيام تارة أخرى.

فما أصعب العيش بذاكرتين، إحداهما تذنب، والأخرى تعاقب، ولم يعرف أحد، ماذا يقصد ؟ وهو يشير بيديه إلى السماء، هل كان يستغفر أم يشتم؟، أم أن هنالك شيء لا نعرفه؟ وأعتقد أن لسان حاله، يقول: كلّ يدير القضية بطريقته.

انتهت الحكـــايـــة